

التعايش بين الأديان بين النظرية والتطبيق

د. الحسين عبد الفتاح جادو(*)

المقدمة

لقد عانى ولا يزال يعاني المجتمع الدولي من الصراعات التي تُرتكب من بعض أتباع الرسالات الإلهية باسم الدين مع أن جوهر الرسالات الإلهية يدعو إلى هداية الناس، واحترام كرامة الإنسان وحرية الفكر، وحرية الاعتقاد، والمساواة في الحقوق العامة، والعدل في جميع الأحوال، والمحبة والتسامح والإخاء والتعاون البناء، والانتفاع المشترك بكافة المنافع الطبيعية التي منحها الله الناس أجمعين بقطع النظر عن عقائدهم ومذاهبهم وأجناسهم وانتماءاتهم العرقية، والتي تكفيهم جميعاً، بل تزيد عن حد الكفاية إن أحسنوا التعامل معها.

لماذا تبدأ دعوات الإصلاح بروح نقية تدعو إلى الهداية وتزكية النفس وتطهيرها للتصدي للفساد والانحراف، وحينما تختلط بالدنيا وزخرفها وتبدأ الغنائم يخالف بعض القائمين عليها ما يدعون إليه، بل ويستغلون تلك الدعوات الإصلاحية لتبرير استئثارهم بالسلطة وإقصائهم الآخرين، والتنكر لحقوقهم المشروعة، ويصبح شعارهم «من ليس معنا فهو ضدنا»، وبالتالي فهو كافر ومشرك ومستباح الدم والمال والعرض؟!

ولو كانت المنافسة بين الأديان قائمة على الرغبة المحضّة في هداية الناس والإخلاص العميق في تقريبتهم إلى الله لما بقي بينها مجال للكيد الرخيص والعداوة الدائمة.

لماذا تحولت اليهودية من كونها ديناً لبني إسرائيل إلى صهيونية عالمية تكيد للآخرين وتسعى للهيمنة على العالم بأسره، وفي سبيل ذلك ترتكب أبشع الجرائم وتلصق أبشع التهم بالآخرين ومعتقداتهم؟

(*) المدرس بقسم الفلسفة الإسلامي، بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة.

ولماذا تحول بعض أتباع المسيحية ذات المبادئ السمحة التي تدعو إلى المحبة والتسامح والسلام إلى الفكر الصليبي الذي يزدري أديان الآخرين ويشوهها عن عمد ويكيد لأتباعها ويشن عليهم الحملات الإعلامية المتواصلة، والحملات العسكرية بالأصالة عن أنفسهم أو بوكالة الآخرين عنهم من حين إلى آخر؟ ولماذا يتعاون هؤلاء مع الصهيونية في الكيد للآخرين خصوصاً أتباع الدين الإسلامي؟

ولماذا انحرف - أيضاً - بعض من ينتسبون إلى الدين الإسلامي عن مبادئه القويمه، وتعاليمه السمحة التي تدعو إلى الحق والهداية والقيم النبيلة واحترام كرامة الإنسان وسائر حقوقه بما فيها حرية الإرادة والفكر والاعتقاد إلى ممارسة العنف والإرهاب مع أن الإسلام برىء من تلك الممارسات؟

ولماذا تتسع فجوة باطراد بين النظرية والتطبيق، أو بين المبدأ والممارسة الفعلية؟

ولماذا تستمر تلك الممارسات البشعة مع أن الجميع يدركون من خلال استقراء التاريخ والواقع الحالي أنه ليس بوسع أتباع أي دين وليس من حقهم أيضاً إقصاء الآخرين والتنكر لحقهم في الوجود وسائر حقوقهم الأخرى المشروعة؟

وإذا كان أغلب أتباع الرسالات الإلهية الكبرى الآن يدركون أن التعايش السلمى بين أتباع هذه الرسالات أصبح ضرورياً أكثر من أى وقت مضى لإحلال الأمن والسلام والاستقرار والرخاء والتنمية في العالم بأسره فما القواعد التي ينبغى أن يقوم عليها ذلك التعايش؟ وما أبرز التحديات التي تواجهه؟ وما الخطوات العملية التي تعين على مواجهة تلك التحديات والتي يجب البدء فيها دون إبطاء؟

تلك هي أبرز التساؤلات التي حاولت هذه الورقة البحثية أن تقدم إجابات لها.

ولكي تؤدي هذه الورقة البحثية الغرض المرجو منها تم تقسيمها إلى مقدمة وثلاثة فصول، وخاتمة تلتها توصيات البحث.

المقدمة: ألقى الضوء على المشكلة التي يعالجها البحث المتعلقة بالتعايش السلمى المنشود بين أتباع الرسالات الإلهية الكبرى الثلاث، وقد تم تشخيصها من خلال طرح عدد من التساؤلات التي تناولها من زوايا مختلفة، في محاولة للإجابة عنها على نحو يلقي الضوء على العلاج المقترح للمشكلة المطروحة.

الفصل الأول: تناول موقف أتباع كل رسالة إلهية من الرسالتين الأخريين وأتباعهما.
أما الفصل الثاني فقد جاء بعنوان: «الإسلام دين التسامح».
وأما الفصل الثالث فقد تناول أبرز التحديات التي تواجه التعايش بين الأديان وكيفية مواجهتها.
وأخيرًا جاءت الخاتمة متضمنة ما خلص إليه البحث من نتائج في هذا الصدد، تلتها التوصيات.

الفصل الأول

موقف أتباع كل رسالة إلهية من الرسالتين الأخريين وأتباعهما

يحسن في البداية أن نحدد الموقف العام لأتباع كل رسالة إلهية في الوقت الحاضر من الآخرين حتى يتسنى لنا تحديد جوهر المشكلة، وبالتالي تحديد الخطوات العملية المقترحة لعلاجها.

موقف اليهود من النصرانية والإسلام

يرى اليهود أن موسى نبيُّ الله، وأن بني إسرائيل شعبه المختار، وأن عيسى ومحمدًا دعيان ليست لهما رسالة، وأن أتباعهما قطعان من المضللين لا يُقام لهم ولا لما يدينون به وزن، ولا يُنحون أية حرمة.

والنصارى - في نظرهم - مخدوعون في لقيط حملت به أمه سفاحا، والمسلمون - في نظرهم - مخدوعون في أعرابي جاء من الصحراء لا يعقل شيئا.^(١)

ومع أن اليهود كانوا يعرفون الحقيقة إلا إنهم جحدوها وحاولوا كتمانها، ولما لم يفلحوا ناصبوها وأهلها العدا. قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ، كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية ١٤٦]. وقال: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [سورة البقرة، الآية ٨٩]، وقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقَّ﴾ [سورة البقرة، الآية ١٠٩]، وقال: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ [سورة المائدة، الآية ٨٢].

وعُرف اليهود منذ بداية ظهور الإسلام بممارساتهم غير المحمودة، وبطعنهم في الدعوة الإسلامية وفيمن يؤمن منهم بها بهتانًا وزورًا، يدل على ذلك قول عبد الله بن سلام وهو أحد

(١) انظر محمد الغزالي، التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، دار نهضة مصر، القاهرة، ط ١٣، ٢٠١٥ م،

أخبارهم الذين أسلموا: «يا رسول الله، إن اليهود قوم بُهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامي قبل أن تسألهم يبهتوني»، فجاءت اليهود، فقال النبي ﷺ: «أى رجل عبد الله فيكم؟»، قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا. قال: «أرأيتم إن أسلم عبدُ الله بنُ سلام؟» فقالوا: أعاذه الله من ذلك. فخرج عبدُ الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسولُ الله. فقالوا: شرنا وابن شرنا، وانتقصوه. قال: فهذا الذي كنت أخاف يا رسول الله. (١)

وكان بعضهم يتظاهرون بالإيمان أحياناً ثم يرتدون عنه لإحداث الفتنة والبلبلة في المجتمع المسلم، قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَأَمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَءَ النَّهَارِ وَآكُفُرُوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة آل عمران، الآية ٧٢].

وكان بعضهم يتظاهر بالإيمان ثم يُظهر العداوة محاولاً إلباسها ثوب الحق ليفسد المجتمع المسلم من الداخل كما فعل عبدُ الله بنُ سبأ الذي كان له دور كبير في اندلاع الفتنة الكبرى في عهد عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ والتي أسفرت عن استشهادهِ، وانقسام حاد داخل المجتمع المسلم على كافة الأصعدة، ولا تزال آثارها ممتدة إلى ما شاء الله.

ومن مكرهم السوء لإفساد الفكر الإسلامي: قيام فريق من أسلم منهم نفاقاً بدس الروايات المكذوبة والحكايات المختلقة والأفكار المضطربة - فيما عُرف عند المسلمين بالإسرائيليات - حتى تنطلي على من ليس لديهم القدرة على التحقق من المسلمين، وتشغل بال المحققين منهم وتدفعهم إلى بذل جهد كبير لتنقية الفكر الإسلامي منها. (٢)

وقد دفعهم عداؤهم للسافر للإسلام وأهله إلى مناصرة المشركين وتفضيل دينهم على دين الله الحق، ولما سألمهم المشركون: أديننا خير أم دين محمد؟ أجابوا: أنتم، فنزل القرآن مكدبهم ولاعنهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥١﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَن يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَن نَّجِدَ لَهُ نَصِيرًا﴾ [سورة النساء، الآيتان ٥١-٥٢].

كما انضم اليهود إلى المشركين يوم الأحزاب لإسقاط المدينة المنورة عاصمة الإسلام

(١) صحيح البخارى بشرح ابن حجر، كتاب التفسير، باب قوله: «من كان عدواً لجبريل»، الحديث رقم ٤٤٨٠.

(٢) محمد سعيد العشماوى، إسلاميات وإسرائيليات، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٨م، ص ١٨٠ وما بعدها.

حينذاك، فقال الله عَزَّوَجَلَّ واصفًا ما دار من عراق بين المسلمين واليهود: ﴿وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٣٥﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَمْ تَطَّوْهُا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٣٦﴾ [سورة الأحزاب، الآيات ٢٦-٢٧].

وكان دأبهم نقض العهود كما فعل يهودُ بنى النضير، ويهودُ بنى قريظة، وكانوا يُكثرون من سبِّ الرسول ﷺ، والإساءة إليه وأصحابه، وكانوا يلحنون بالتحية ليجعلوها دعاءً بقولهم: «السلام عليكم» بدلا من «السلام عليكم»، فكان النبي ﷺ يرد عليهم بقوله: «عليكم»^(١). وكانوا ولا يزالون يحتهدون لإشعال نيران الحروب ويسعون في الأرض فسادًا، قال تعالى: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَاتِ بَيْنَهُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾ [سورة المائدة، الآية ٦٤].

واليهود معروفون قديمًا وحديثًا بمقت غيرهم واحتقارهم وميلهم عن الأصل الحق القاضى بتمايز الناس على أساس التقوى والعمل الصالح بعد الإيمان إلى التعصب العرقى وقهر المستضعفين وقتل النساء وغير المحاربين وإبادة المغلوبين بكل وحشية زاعمين أن تلمودهم يقضى بقتل الأميين الذين لا يعدون - في نظرهم - كونهم حيوانات نجسة في صورة بشرية، فهم كالحمير والحنازير، والكلاب أرفع منهم، ويحل فعل كل إثم بهم ولا سبيل عليهم في ذلك.^(٢) قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيَّتِينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ [سورة آل عمران، الآية ٧٥].

إن الذى ينظر فى أسفار اليهود المزعومة يجد العديد من النصوص التى تحض على الكراهية والتعصب العرقى وازدراء الآخرين واستباحة حرماهم، فقد جاء فى سفر التكوين (٢٥/٩) «ليكن كنعان ملعونًا، وليكن عبد العبيد لإخوته»، كما جاء فى سفر التثنية (١٧: ٢٠) «وحين تتقدمون لمحاربة مدينة فإن أجابتكم إلى الصلح فكل الشعب الساكن فيها يصبح

(١) صحيح البخارى، كتاب الأدب، باب «لر يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا»، الحديث رقم ٥٦٧٨.

(٢) انظر د. محمد ممتاز عبد القادر، نقد الأناجيل المرفوضة والمعترف بها، كنوز للنشر والتوزيع، القاهرة، ط ٢٠٠٦، ص ٣٥ وما بعدها.

عبيدًا لكم، وإن أبت الصلح و حاربتكم فاقتلوا جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم فاغتموها لأنفسكم. أما مدن الشعوب فلا تستبقوا فيها نسمة حية بل دمروها عن بكرة أبيها». وفي إشعيا (٦١/٥:٦) «ويقوم الغرباء على رعاية قطعانكم، وأبناء الأجنب يكونون لكم حُرًا وأولادًا وكرامين. أما أنتم فتُدعون كهنة الرب، فتأكلون ثروة الأمم وتتعظّمون بغناهم».

وفي العصر الحديث ساعدوا على إنشاء حركات عميلة لهم داخل المجتمعات الإسلامية لزعزعة استقرارها خدمة لأهدافهم، منها على سبيل المثال: البهائية التي يجتمع رؤساؤها كل سنوات عدة في إشارة إلى اكتمال الرؤوس للنجمة الإسرائيلية السادسة. وقد قامت في عام ١٩٩٢م بوضع خطة عالمية توقعوا لها في حينها أن تكتمل رؤوسها عام ١٩٩٨م متوهمين أن عام ٢٠٠٠م عام إعلان إسرائيل الكبرى من خلال هذه الخطة التي ستعاون مع اليهود في تحقيق حلم السلام العالمي ليخرج المسيح المنتظر، ولكن خيبتهم الله ومضى عام ٢٠٠٠م وإسرائيل تعاني الهوان على أيدي أغيلمّة فلسطين وشبابها، وهو ما دفع أمريكا التلمودية لغزو العراق بعد أفغانستان تمكينًا لإسرائيل من الوجود عند نهر الفرات حسب نصوص التوراة المزعومة، ولكنهم سقطوا في مستنقع، وجاءت الرياح بما لا تشتهي السفن.^(١)

والقاديانية الأحمديّة أيضًا لا تقل عمالة وخدمة لليهود عن أختها البهائية، فقد نشأت في ظل الاحتلال الإنجليزي مؤيدة لحكومة التاج البريطاني مشبهة البهائية من حيث ادعاء النبوة وتحريف تعاليم الإسلام، والتفاني في خدمة اليهود وملكتهم المنتظر، وكيف لا ومركزهم في حيفا بفلسطين المحتلة، ويتمتعون بامتيازات عظيمة في إسرائيل منذ احتلال فلسطين عام ١٩٤٨م.^(٢)

والصهيونية العالمية لا تقيم دعواها على عقيدة تنشرها وتدعو الأمم إلى الإيمان بها، لأنها إذا فعلت ذلك نقضت دعواها الرئيسية وهي احتكار الإله لنفسها، والإيمان بأنه إله إسرائيل كما يدعونه في الصلوات، وليس للأمم الأخرى حظ من رضاه. فالصهيونيون الذين يزعمون أن الله لهم وحدهم، وأنهم شعبُ الله المختارُ دون غيرهم لن يقبلوا مشاركة أحد لهم في هذا الاحتكار، ولن يبشروا بدين يدعون الناس إلى اعتناقه خلافًا لأصحاب الأديان الأخرى،

(١) انظر محمد عيسى داود، سر الكراهية أمريكا التلمودية، مدبولي الصغير، الجيزة، ط١، ٢٠٠٨م، ص ١٤٥.

(٢) انظر المرجع السابق ص ١٤٥.

وليس في وسعهم سوى محاولة هدم عقائد الآخرين وأخلاقهم ودعائم أفكارهم وشرائعهم، ثم لا يُخلفونها بعقيدة أخرى تحل محلها تقف لهم في الطريق.^(١)

ولا تستطيع الصهيونية أيضًا أن تسود بغير الخداع والتضليل؛ فهي تستند في المقام الأول إلى سلطان المطامع والمنافع واستغلال الشهوات من وراء ستار. فلا بد لها إذن من أساليب الهدم والخداع. لهذا تبادر الصهيونية إلى استغلال نفوذها في إثارة الفتن والقتل، وتظفر الفتنة بتأييدها كلما توقعت منها الإمعان في الهدم والفوضى؛ لأنها لا تنجح في عالم فيه إيمان بالخلق أو بالوطن أو بالدين.

ومن الأساليب التي يستخدمها الإعلام الصهيوني للتأثير على الرأي العام الأمريكي والأوروبي:

- ١- ترويض الأخبار المكذوبة عن أحوال الأقليات اليهودية السيئة في بعض الدول العربية، كأحوال الأقلية اليهودية في سبعينيات القرن الماضي في سوريا.
- ٢- محاولة الابتزاز من خلال ترسيخ ما يُسمى بـ «عقدة الذنب» لدى الشعوب الأوروبية، والإيحاء لها أنها المسئولة عن مذابح النازية ضد اليهود، حتى إن الإعلام الصهيوني نجح في ترسيخ هذه العقدة لدى الشعب الأمريكي البعيد تمامًا عن مجازر أوروبا والنازية.
- ٣- استعطاف الرأي العام العالمي من خلال التباكي على المآسى التي واجهت الشعب اليهودي عبر تاريخه الطويل في أوروبا، واتخاذ ذلك ذريعة لترسيخ دعائم الكيان الصهيوني على حساب الفلسطينيين.
- ٤- تزوير الحقائق لمصلحة الأهداف الصهيونية، كالزعم أن فلسطين كانت «صحراء قاحلة» حولها الكيان الصهيوني إلى «جنة خضراء»، والتغطية على المذابح الصهيونية في فلسطين، والادعاء أن الأطفال الفلسطينيين اللاجئين يتعلمون في المخيمات «القتل والإجرام».

٥- استخدام أسلوب التكرار الإعلامي لترسيخ الأفكار التي يروجها الإعلام الصهيوني، وتقديمها للرأي العام في صور متنوعة عن طريق الكلمة المكتوبة في الصحف وغيرها،

(١) انظر محمد عيسى داود، سر الكراهية أمريكا التلمودية، مدبولي الصغير، الجيزة، ط ١، ٢٠٠٨م، ص ٢٧٦.

والبرامج المتلفزة، والأفلام السينمائية. ومعلوم أن أسلوب التكرار كان الوسيلة الرئيسة التي استند إليها «هتلر» في تأسيس فلسفته الإعلامية، وكان الركيزة الأولى للإعلام النازي.

وعلى الرغم من قنامة المشهد على صعيد الفكر اليهودي الذي أسس في العصر الحديث دولة دينية تقوم على الخداع والتضليل والتعصب والتمييز العرقي والسطو والاحتصاب والقتل والتدمير، استناداً إلى إيمانهم بأنهم شعبُ الله المختار، وأن الآخرين لا حرمة لهم - إلا إن الأمل معقود على توفيق الله عزَّجَلْ لجهود المستنيرين المخلصين في كافة بقاع العالم من اليهود وغيرهم لتصويب المسار، واتخاذ خطوات عملية جادة على طريق التعايش السلمي بين الأديان على نحو يصب في مصلحة الناس أجمعين، الأمر الذي يهتم هذا البحثُ بالقاء الضوء على جانب منه بإذن الله تعالى.

موقف النصارى من اليهودية والإسلام

يتمسك النصارى بالعهد القديم، ويتبهون بما فيه من بشارات بالسيد المسيح، ويعدون العهد الجديد متمماً للعهد القديم وليس ناقضاً له، فقد نُسب إلى السيد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ في إنجيل متى (١٧/٥) القول: «لا تظنوا أني جئت لأنقض الشريعة أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأتمم. فالحق أقول لكم إنه إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرفٌ واحد أو نقطة واحدة من الشريعة حتى يتم كل شيء».

ويفخر النصارى بتسامحهم مع الأقليات اليهودية أحياناً في بعض البقاع التي كانوا متنفيدين فيها، ففي مصر - على سبيل المثال - كانت الإسكندرية حافلة باليهود الذين كانوا يشغلون حين كبيرين منها، وكان لهم دورٌ كبير فيما اكتسبته تلك المدينة في عهد البطالسة من الشهرة في العلم والتجارة والشعر والفلسفة، وكانت حقوقهم المدنية فيها مثل حقوق اليونان، ولما صارت مصرٌ تحت حكم الرومان ظلت حقوقهم على ما كانت عليه.

كما أن كثيرين من يهود آسيا الصغرى تجنسوا بالجنسية الرومانية ليس رغبة في الشرف؛ لأنهم يفضلون جنسيتهم الأصلية على كل جنسية أخرى، لكنهم فعلوا ذلك لحماية حقوقهم في ظل الحكومة الرومانية التي كانت تأذن لليهود بالاجتماع في كنائسهم، وهو امتياز لم ينل مثله الرومان أنفسهم، فكانوا يجتمعون كل سبت في الكنيس بمعزل عن العيون، وكان النصارى إذا أرادوا الفرار من الاضطهاد تظاهروا باليهودية.

وكان لليهود امتيازات طائفية لإنشاء مجالس خاصة للقضاء في أمورهم الشخصية وغيرها من شئونهم الداخلية، والحكومة الرومانية تؤيد أحكامهم وتتكلف تنفيذها بما يشبه امتيازات طوائف النصارى في الدولة العثمانية.^(١)

لكن هذا الموقف المتسامح من بعض النصارى مع اليهود لم يكن عاماً ولا دائماً، حيث قام كثير من نصارى أوروبا تلامذة اليهود بإذاعة أسانذتهم الذين درسوهم من قبل قتل الضعفاء والمساكين الذلل وصنوف العذاب وإحراقهم وهم أحياء عبر مجازر تاريخية شهيرة، وسقوهم من نفس الكأس التي أذاقوها غيرهم، فظهر أن كثيرين من النصارى استوعبوا الدرس من اليهود جيداً، فجنى الشر زارعُه.^(٢)

أما موقف النصارى من الإسلام وأهله ففيه شيء من التفصيل، فهم في الغالب ينكرون الإسلام على الرغم مما جاء من نبوءات وبشارات بشأن نبيه في العهدين القديم والجديد، فعلى سبيل المثال جاء في إنجيل يوحنا (١٩/١) «وهذه هي شهادة يوحنا حين أرسل اليهود إليه من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه: من أنت؟ فاعترف ولم ينكر، وأقر قائلاً: لست أنا المسيح، فسألوه: ماذا إذن؟ أنت إيليا؟ قال لست إياه. فقالوا: أنت النبي؟ أجاب: كلا».

فهذه الشهادة من النبي يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ تفيد أن شعوب اليهودية كانت منتظرة مجيء إيليا والمسيح ونبي آخر، وسواء كان النبي يحيى عَلَيْهِ السَّلَامُ هو إيليا أم غيره، فالمهم أنهم كانوا منتظرين مجيء المسيح ونبي آخر، وقد جاء المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فلم يبق حينها إلا بعثة النبي الآخر الذي ينتظره الجميع، وهو غير عيسى ويحيى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ.^(٣)

ومن ذلك أيضاً ما نسب إلى المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ في إنجيل يوحنا (١٦/٧، ١٣) «إنه خير لكم أن أنطلق، لأننى إن لم أنطلق لا يأتىكم المعزى، أما إذا مضيت فسأرسله لكم.. فمتى جاء ذاك الذى هو روح الحق فهو يرشدكم إلى الحق كله، لأنه لا يتكلم من عنده، وإنما يتكلم بما يسمعه، وسيخبركم بأمر آتية».

كما جاء في إنجيل برنابا الذى لا تعترف به المجمع المسكونية (١٩/١٤: ٢٠): «فلما

(١) انظر جورج زيدان، أديان الأمم، دار طيبة للطباعة، الجزيرة، ط١، ٢٠١٤م، ص ٩٠ وما بعدها.

(٢) انظر د. محمد ممتاز عبد القادر، نقد الأناجيل المرفوضة والمعترف بها ص ٣٦.

(٣) انظر محمد عزت الطهطاوى، الإسلام ومشكلات معاصرة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ٦٤.

انتصب آدم على قدميه رأى في الهواء كتابة تتألق كالشمس نصها: لا إله إلا الله، ومحمد رسول الله. ففتح آدم فاه وقال: أشكرك أيها الرب إلهي لأنك تفضلت فخلقتني، ولكنني أضرع إليك أن تنبئني ما معنى هذه الكلمات: محمد رسول الله؟ فأجاب الله: مرحبًا بك يا عبدى آدم، وإني أقول لك إنك أول إنسان خلقت، وهذا الذى رأيته إنما هو ابنك الذى سيأتى إلى العالم بعد الآن بسنين عديدة، وسيكون رسولى الذى لأجله خلقت كل الأشياء، الذى متى جاء سيعطى نورًا للعالم، الذى كانت نفسه موضوعة فى بهاء سماوى ستين ألف سنة قبل أن أخلق شيئًا».

وعلى الرغم من أن أغلب النصارى أنكروا الإسلام باعتباره دينًا إلهيًا إلا أنهم فى الغالب كانوا أقل عداوة له من غيرهم، وقد آمن به بعضهم ممن تجردوا للحق، يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ إِنَّكَ بَيْنَ يَدَيْهِمْ قَائِمٌ وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُفِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَبَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [سورة المائدة، الآيات ٨١-٨٥].

وما صنعه النجاشى من الاحتفاء بالمسلمين الأوائل الذين هاجروا فارين بدينهم من اضطهاد قومهم إلى الحبشة يؤكد هذا، وقد أرسل العديد من الهدايا إلى النبى ﷺ، وأحسن وفادة رسله، ومات على الإسلام.

وكذلك ما صنعه المقوقس حاكم مصر التابع للدولة البيزنطية من إحسان الرد على كتاب رسول الله ﷺ إليه، وإكرام مبعوثه حاطب بن أبى بلتعة، وإرسال الهدايا إليه وعلى رأسها السيدة مارية القبطية بنت شمعون سنة ٥٧ التى صارت من أمهات المؤمنين، وأنجب منها الرسول ﷺ ولده إبراهيم ثالث أبنائه الذكور، وقد توفى وهو صغير.

وفى العصر الحديث هناك من عقلاء النصارى من يصرحون بأنهم «لا يعتبرون الإسلام دينًا معاديًا يجب عليهم أن يحاربوه، فلما كان قريبًا من اليهودية والمسيحية صار من المستحسن أن يوضع ضمن التراث التوحيدى انطلاقًا من إبراهيم والوعد الذى قطعه الله له بشأن ابنه إسماعيل، ولم يعد المسيحيون يتهمون محمدًا بأنه مدعى النبوة أو نبى كاذب، بل على العكس

منهم من يقر بأنه نبي.. والقرآن يعتبره المسيحيون مصدقاً للتوراة والإنجيل صار هو نفسه من سلالة هذا الوحي، صحيح أنه يهاجم التثليث والتجسيد غير أنه يكفى إظهار أن ما يهاجمه مغاير لمعنى هاتين العقيدتين»^(١).

وفي المقابل هناك نصارى شديدو التعصب قاموا بشن تسع حملات صليبية على الشرق الإسلامي على مدى قرنين من الزمان ابتداء من ٥٤٩٠، وكل قرية استسلمت لهم أعملوا السيف في أهلها وما تركوا مسلماً ولا يهودياً^(٢).

وعندما سيطر النصارى على الأندلس صدر قرار ملكي عام ١٥٠١م بحرق الكتب الدينية التي كانت في حوزة الموريسكيين المسلمين،^(٣) وفي عام ١٥٢٣م حُوت المساجد إلى كنائس.^(٤) وفي عام ١٥٢٥م صدر قرار التنصير الإجباري، ومُنِع الختان والأسماء الإسلامية مما جعل المسلمين يسمون أطفالهم اسمين أحدهما سرياً إسلامياً والآخر علنياً نصرانياً، ومُنِع المسلمون من ذبح الحيوانات طبقاً للشريعة الإسلامية، وأجبروا على إحضار قصابين نصارى ليذبحوا لهم. وأقيمت محاكم التفتيش لاقتلاع الشعائر الإسلامية، وبدأ التجسس على المسلمين وإجبارهم بالقوة على التنصر، وكان هدفهم استئصال الإسلام من الأندلس.^(٥)

وعلى الرغم من أن مؤسسات الهيمنة الاستعمارية الغربية طاردت الدين واللاهوت في بلادها، وهمشت دور الكنيسة في مجتمعاتها إلا أنها ظلت ودية للروح الصليبية في مواجهتها مع الإسلام والمسلمين، واستمرت في استخدام الدين والكنيسة والتنصير سلاحاً في الزحف الإمبريالي على العالم الإسلامي. فسلطاتها الاستعمارية تعمل على علمنة المسلمين لكسر شوكة المقاومة الإسلامية للاستعمار الغربي بتحويل الإسلام إلى روحانية فردية معزولة عن السياسة والاجتماع، مع فتح الأبواب والميادين للكنائس الغربية لتنصير المسلمين، وذلك لإتمام عملية

(١) بولس الخورى، الإسلام والغرب (الإسلام والعلمانية)، جونية، لبنان، ١٩٩٧م، ص ٥٣.

(٢) انظر د. إيهاب حفطى، الإسلام والغرب صراع أم تعايش، إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١، ٢٠١١م، ص ١٣٢.

(٣) أنطونيو دومينغيز هورتر وبرنارد بنشت، تاريخ مسلمى الأندلس الموريسكيين حياة مأساة أقلية، ترجمة: عبد العال صالح طه، دار الإشراف، قطر، ط ١، ١٩٨٨م، ص ١٢٥.

(٤) انظر المصدر السابق ص ١١٥.

(٥) انظر المصدر السابق ص ١٢٥ وما بعدها.

التغريب والتبعية والإلحاق كي يتأبد النهبُ الاقتصادي والمسخ الحضارى اللذان هما الهدف الأول للاستعمار.^(١)

وفي البلاد الفقيرة يمارس المنصرون ضغوطهم على المعوزين والمرضى ليتنصروا أو يرسلوا أطفالهم الصغار للكنائس ليعلموهم ما يشاءون إن أرادوا المعونة، على الرغم من أنهم يعلمون أن تنصر هؤلاء شكلي وسرعان ما يعودون إلى دينهم إذا تحسنت أحوالهم، يقول صموئيل مارينوس زويمر (ت: ١٩٥٢م) أحد قادة التنصير: «إن الذين دخلوا من المسلمين في حظيرة المسيحية لم يكونوا مسلمين حقيقيين، لقد كانوا أحد ثلاثة: إما صغيراً لم يكن من أهله من يُعرفه ما هو الإسلام؟ أو رجلاً مستخفًا بالأديان لا يبغى غير الحصول على قوته وقد اشتد به الفقر وعزت عليه لقمة العيش، وثالثاً يبغى الحصول على غاية من الغايات الشخصية».^(٢)

والمنصرون يكرهون الإسلام ويحسون كأنما كان تقدمه على حساب النصرانية، فهم يودون له العنت وينتظرون له الخبال، ولا أدل على ذلك من أن بطريك المارون «أنطون عريضة» والمطران «غناطيوس مبارك» كانا حرباً على الجامعة العربية لتوهمها أنها مقدمة جامعة إسلامية، وكانا عوناً على عرب فلسطين مع اليهود؛ لأنه حبيبٌ إلى قلوبهم أن يكون اليهودُ مواطنين، وأن يكون المسلمون مشردين.^(٣)

ولما شعر الدعاة إلى النصرانية أن إدخال المسلمين في ديانتهم مستحيل؛ لأن الذين يستبعدون من طريقهم إيماناً قائماً على قواعد المنطق لن يلتفتوا إلى إيمان عزله أصحابه عن العقل والعدل - قرروا أن يفسدوا أبناءه بتسليط الشهوات عليهم وإشاعة الإلحاد الأعمى بينهم لتمهيد السبيل أمام الصليبيين الجدد كي يحققوا الأهداف التي عجز عنها أجدادهم في العصور الوسطى بعد حروب دامت أجيالاً.^(٤)

(١) انظر د. محمد عمارة، علمانية المدفع والإنجيل التحالف غير المقدس بين المدفع العلماني وإنجيل المنصرين، دار المعارف، القاهرة، ٢٠١٣م، ص ١٦ وما بعدها.

(٢) محمد محمود الصواف، المخططات الاستعمارية لمكافحة الاستعمار، دار الإصلاح، الدمام، السعودية، ط ٣، ١٣٩٩هـ، ص ٥٨.

(٣) انظر محمد الغزالي، التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، دار نهضة مصر، القاهرة، ط ١٣، ٢٠١٥م، ص ٣٥٩.

(٤) انظر المصدر السابق ص ٢٦٠.

وبعد أن جرب هذا الفريق من النصارى كل هذه الممارسات التى لم تفلح فى تحقيق مآربهم، ولم تجن البشرية منها سوى الخراب والدمار أليس من المنطق أن يجنحوا للمسلم والتعاون على البر الذى يعود نفعه على الجميع، ويعملوا على احترام حقوق الإنسان وصيانة العدالة الاجتماعية، وينشروا ثقافة المحبة والإخاء التى نادى بها السيد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ؟

فقد نُسب إلى السيد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ فى إنجيل متى (٩/٥) القول: «سعداء هم صانعوا السلام»، كما نسب إليه فى إنجيل لوقا (٥٦/٩) القول: «إن ابن الإنسان لم يأت ليُهلك نفوس الناس، بل ليحييها»، كما نُسب إليه أيضًا فى إنجيل لوقا (٢٥/٢٠) القول: «أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله»، كما نُسب إليه كذلك فى إنجيل لوقا (٢٧/٦-٣٥) القول: «أحبوا أعداءكم، أحسنوا إلى مبغضيكم، باركوا لاعنيكم، وصلُّوا لأجل الذين يسيئون إليكم، من لطمك على أحد خديك فاترك له الآخر أيضًا، ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضًا، كل من سألك فأعطه، ومن أخذ مالك فلا تطالبه به، وكما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا أتم أيضًا بهم، فإنكم إن أحببتم الذين يحبونكم فأى فضل لكم؟! فإن الخطاة أيضًا يحبون من يحبونهم، وإن أحسنتم إلى الذين يحسنون إليكم فأى فضل لكم؟! فإن الخطاة أيضًا يفعلون ذلك، وإن أقرضتم الذين ترجون أن تستردوا منهم فأى فضل لكم؟! فإن الخطاة أيضًا يقرضون الخطاة ليستردوا منهم المثل، ولكن أحبوا أعداءكم، وأحسنوا إليهم، وأعطوا ولا تخيِّبوا رجاء أحد غير طامعين فى استرداد شيء».

موقف الإسلام والمسلمين من اليهودية والنصرانية

يؤمن المسلمون بأن فى دينهم قاسمًا مشتركًا بين الديانات الإلهية كلها، فهم يؤمنون بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ويوقرونه، ويعتبرون التهجم على مكانته كفرًا بالإسلام، وهم كذلك يؤمنون بعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ويكرمونه وينزهونه ونسبته، ويرون الطعن فى عفاف أمه أو شرف ابنها كفرًا بالإسلام. قال تعالى: ﴿ءَأَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمَّنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ- لَا تَفْرِقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [سورة البقرة، الآية ٢٨٥]، وقال: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [سورة الشورى، الآية ١٣].

ويضم المسلمون إلى إيمانهم بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والتوراة، وعيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ والإنجيل إيمانًا

جديدًا بمحمد ﷺ والقرآن، على أساس أن النبوة الأخيرة جاءت تصديقًا لما قبلها، ومحوًا للفوارق التي مزقت شمل العالم أجمع، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي أَخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة النحل، الآية ٦٤].

وكان النبي ﷺ شديد الاعتزاز بموسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ويصوم يوم عاشوراء احتفاءً بنباته وشكرًا لله عَزَّوَجَلَّ، فقد أورد البخارى فى صحيحه من حديث ابن عباس «قدم النبي ﷺ المدينة فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجى الله بنى إسرائيل من عدوهم فصامه موسى، قال: فأنا أحق بموسى منكم، فصامه، وأمر بصيامه»^(١).

وكان النبي ﷺ شديد الاعتزاز أيضًا بالسيد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، يدل على ذلك قوله: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم فى الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتى ودينهم واحد»^(٢).

فالإسلام يهودية موسى ونصرانية عيسى معًا وهدايات من قبلهما من رسل الله أجمعين، قال تعالى: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ لَا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ وَأَنزِلْنَا لَهُمُ الْقُرْآنَ مِنَ السَّمَاءِ لِيُذَكِّرَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [سورة البقرة، الآية ١٣٦].

ولو أدرك موسى وعيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ محمدًا ﷺ لآمنا به ونصرناه، لأن الله أخذ الميثاق على كل نبي إذا جاءه رسول مصدق لما معه أن يؤمن به وينصره، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِءَ وَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ [سورة آل عمران، الآية ٨١].

ولهذا فإن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ ينزل فى آخر الزمان ناصرًا للإسلام الذى هو دين محمد ﷺ والأنبياء جميعًا صلوات الله عليهم، ومكذبًا لليهود الذين زعموا قتله، وقاتلا زعيمهم المسيح الدجال، ومبينًا حقيقته التى اختلف النصارى بشأنها، وواضعا الجزية عنهم فلا يقبل منهم

(١) صحيح البخارى بشرح ابن حجر، كتاب الصوم، باب صيام يوم عاشوراء، الحديث رقم ٢٠٠٤.

(٢) صحيح البخارى بشرح ابن حجر، كتاب آحادىث الأنبياء، باب قول الله: «واذكر فى الكتاب مريم إذا

انتبذت من أهلها»، الحديث رقم ٣٤٤٣.

إلا الإسلام، قال تعالى: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ١٥٧ ﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٥٨ ﴾ وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿ [سورة المائدة، الآيات: ١٥٧، ١٥٨].

وقد أورد البخارى فى صحيحه أن أبا هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «والذى نفسى بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابنُ مريم حكماً عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الحرب، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها» (١).

كما فرح المسلمون بنصر الروم الذين هم فى الجملة من أهل الكتاب على الفرس المجوس، قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ ۙ غُلِبَتِ الرُّومُ ۚ ١ ۚ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۚ ٢ ۚ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۚ ٤ ۚ نِصْرَ اللَّهِ نِصْرُ مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۚ ﴾ [سورة الروم، الآيات: ١-٥].

كما مدح القرآن الكريم المعتدلين من أهل الكتاب الذين أذعنوا للحق وسارعوا فى الخيرات، قال تعالى: ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ١١٣ ﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّٰلِحِينَ ١١٤ ﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ﴿ [سورة آل عمران، الآيات: ١١٣-١١٥].

فالقرآن إذا لم يأت بدين جديد، وإنما هو مصدق لما قبله من الرسالات الإلهية، ولهذا فإن القرآن بعد أن يقص سير الأنبياء وأتباعهم ينظمهم فى عقد واحد، ويجعلهم جميعاً أمة واحدة لها إله واحد، ودين واحد، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ [سورة الأنبياء، الآية ٩٢].

وإذا كان الإسلام بمعناه العام هو دين الأنبياء جميعاً فلا يُسأل عن علاقة دين محمد ﷺ به لأنه لا يُسأل عن علاقة الشئ بذاته، وإنما يُسأل عن علاقة شريعة محمد ﷺ بالشريعتين اللتين بُعثت بهما موسى وعيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، وهنا ينبغى التمييز بين هاتين الشريعتين قبل أن

(١) صحيح البخارى بشرح ابن حجر، كتاب أحاديث الأنبياء، باب نزول عيسى ابن مريم عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، الحديث رقم ٣٤٤٨.

تمتد إليهما يد التحريف وبعد أن لحقهما التحريف، ففى الحال الأولى تعد علاقة الإسلام بمعناه الخاص الذى بُعث به محمد ﷺ بهاتين الشريعتين علاقة تصديق كلي، وعلاقته بهما فى الحال الثانية علاقة تصديق لما تبقى من أجزائهما الأصلية، وتصحيح لما طرأ عليهما من البدع والإضافات الغربية عنهما. (١)

ولهذا فإن القرآن فسح الطريق أمام أهل الاعتدال من ورثة الدين الإلهي كله للتعايش والتعاون فى ظل عبادة الله الواحد الأحد، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [سورة آل عمران، الآية ٦٤].

فالشواهد القرآنية - إذن - تؤصل روح التسامح والتآلف، وترسى دعائم التعاون والتعاطف، وترسخ زمالة الشرائع الإلهية. أما ما ورد من شواهد قد يتبادر إلى الذهن أنها على خلاف ما ذكر، فهى لظروف خاصة، وأوضاع طارئة، وأسباب مؤقتة تُنزل على موردها، أى أنها تتضمن حكماً خاصاً بطائفة أو فرد لأسباب اقتضت ذلك ولا تمثل حكماً عاماً ولا تنقض الأصل السابق. (٢)

التمكين فى الأرض للأصلح من سنن الله الكونية

والمسلمون يؤمنون بأن الأقدار على التعايش مع غيره مع استيفاء مقومات الصلاحية للقيادة هو الأجدر بأن يمكن الله له فى الأرض؛ فالنظام يجب أن يغلب الفوضى، والعدل يجب أن ينتصر على الظلم، والعلم يجب أن يحق الجهل، والأخلاق الفاضلة ترجح حتماً على الضعة والتحلل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [سورة الأنبياء الآية ١٠٥]، وقال: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [سورة النور، الآية ٥٥].

والمواقع يؤكد أن أسلافنا الفاتحين لم يرثوا الأرض إلا وهم لقيادتها أهل، وكانت مصلحة

(١) انظر محمد عزت الطهطاوى، الإسلام ومشكلات معاصرة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ١٦٧م.

(٢) انظر د. أحمد محمود كريمة، أهل الكتاب فى التشريع الإسلامى، دار المعارف، القاهرة، ٢٠١٧م، ص ٤٥.

العالم في انتقال السيادة إليهم من الفرس والروم فاقدى الأهلية لها، ولن يعود هذا الزمام الضائع من المسلمين إليهم مرة أخرى إلا إذا كانوا أرجح في موازين الصلاحية العامة من غيرهم. وخيرٌ للمسلمين أن يفقهوا سنن الله في كونه، فإن هذه السنن لا تلين لأحد.

إن أحق الناس بامتلاك التربة التي نحيا عليها من يُحسن استغلالها واستخراج الدفين من كنوزها، والخبيء من خيراتها، وأحق الناس بالتمكين في الأرض من يستطيع إذا ساد فيها أن يقيم العدل بين أهلها.

وكلما اضطربت طاقة أمة وتطرق الفشل إلى سياستها في ميادين التعمير والإصلاح والعدالة والإنصاف بدأت تتدحرج إلى حافة الهاوية ويسرع بها عسفها إلى حتفها.^(١)

الاختلاف من سنن الله في خلقه

ومن مقومات التعايش الذي يحرص عليه المسلمون إيمانهم بأن الاختلاف من سنن الله في خلقه، وهو ما يستلزم احترام الآخر على الرغم من الاختلاف، فالله عَزَّوَجَلَّ لما خلق الكون اقتضت حكمته أن يقوم على أساس التنوع الذي لا يستقيم حاله إلا به، وكان للبشر النصيب الوافر من هذا الاختلاف، فهناك الاختلاف في الجنس واللون واللسان والحجم والشكل والفكر والمعتقد، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَفَ لِسَانِكُمْ وَأَلْوَانَكُمْ﴾ [سورة الروم، الآية ٢٢]، وقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالْدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ [سورة فاطر، الآيتان: ٢٨]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا نَزَّلْنَا مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّجِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [سورة هود، الآيتان: ١١٧، ١١٨]، وقال: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَا جَاءَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَأَسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾ [سورة المائدة، الآية ٤٨].

لكن هذا الاختلاف الذي اقتضته الحكمة الإلهية لا ينبغي أن يكون سبباً للتنازع بين الناس، لأنهم جميعاً مخلوقون لعبادة الله عَزَّوَجَلَّ، وعمارة الأرض والتعاون على البر والتقوى، وتزكية النفس والترقى في مدارج الكمال بقدر الطاقة البشرية، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ

(١) انظر محمد الغزالي، التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام، دار نهضة مصر، القاهرة، ط ١٣، ١٥، ٢٠١٥، ص ١٥٤ وما بعدها.

أَلِحْنَ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿ [سورة الذاريات، الآية ٥٦]، وقال: ﴿هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [سورة هود، الآية ٦١]، وقال: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [سورة المائدة، الآية ٢]، وقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ﴿١﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾ [سورة الشمس، الآيتان: ٩، ١٠].

الفصل الثاني

الإسلام دين السلام والتسامح

وعلى الرغم من أن الله عزَّ وجلَّ بعث محمداً ﷺ هادياً للعالمين مع اختلاف أفكارهم وعقائدهم يدعوهم إلى دين الله الواحد الأحد، حتى يسيروا على منهجه، ويؤمنوا برسالته الموَّحدة لهم جميعاً - إلا إن الله أعلم نبيه أن الناس سيظلون مختلفين لأن حكمته اقتضت ذلك، وأمره ألا يُكره أحداً على الإيمان، لأن الإكراه يتنافى مع حقيقة الإيمان القائم على الاختيار لا الاضطرار، ويؤدى إلى التنازع الذين يهدد الأمن والسلم، وينتج منافقين لا مؤمنين يشكلون خطراً داهماً على المجتمع المسلم، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يونس، الآية ٩٩]، وقال: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ [سورة الشورى، الآية ٤٨]، وقال: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ﴿١١﴾ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ [سورة الغاشية، الآيتان ٢١، ٢٢]، وقال: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعَبِيدِ﴾ [سورة ق، الآية ٤٥]، وقال: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ [سورة الأنعام، الآية ٦٦]، وقال: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أِهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١١٨﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصِرْ حَتَّىٰ يَخُوكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [سورة يونس، الآيتان: ١٠٨، ١٠٩].

فالمسلم الذى يؤمن بأن إيمانه لا يكمل إلا بالتعظيم لأمر الله، والشفقة على خلق الله، يتحلى بالرفق فى الأمور كلها متأسيًا بنبيه ﷺ الذى قالت عنه عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: «ما خُير رسولُ الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إنمًا، فإن كان إنمًا كان أبعد الناس عنه، وما انتقم رسولُ الله ﷺ لنفسه، إلا أن تُنتهك حرمةُ الله فينتقم لله بها». (١)

إن الأمن والسلام ضرورتان إنسانيتان فى الحياة أوجب الإسلام على أتباعه القيام على سيادتهما فى مجتمعه والمحافظة عليهما، ولذلك فإن كل إنسان يعيش فى المجتمع الإسلامى ينعم بهاتين النعمتين. والسلام هو المقصد والغاية الكبرى للشريعة الإسلامية، وهو اسم من أسماء الله عزَّ وجلَّ، وتحتيته إلى عباده فى الجنة. وتحمية الملائكة للمؤمنين فى الجنة السلام، كما

(١) صحيح البخارى بشرح ابن حجر، كتاب المناقب، باب صفة النبى ﷺ، الحديث رقم ٣٥٦٠.

سمى القرآن الجنة «دار السلام»، وأهل الجنة لا يسمعون من القول ولا يتحدثون بلغة غير لغة السلام، وقد جعل الله عزَّجَلَّ الهداية إلى سبل السلام جزاء لمن اتبع هديه وأطاعه، وأمر المؤمنين أن يجعلوا السلام تحيتهم. وجوابُ المؤمنين ردًّا على الجاهلين السلام.

والسلام يلقيه المسلم كل يوم خمس مرات على الأقل في خاتمة الصلوات المفروضة. وقد بين الله عزَّجَلَّ قيمة السلام في كتابه حينما أوجب على المؤمنين تأمِينٍ من يلقي السلام حيث قال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَقَ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ [سورة النساء، الآية ٩٤].

ولقد جاءت الشريعة الإسلامية في أحكامها بطوق من الحماية والأمن يشمل المسلم وغيره، وأوجب إشاعة أجواء السلام الاجتماعي الذي ييسر على الإنسان التعايش والتعاون بين أفرادها، فغيرُ المسلم والمسلم متساويان في الحقوق الإنسانية العامة كحماية النفس والدين والعرض والمال وإتاحة الفرصة للعمل والكسب.^(١)

سماحة الإسلام

ولما كان التعايش القويم لا يتحقق إلا بالسلام العادل والشامل، والسلام لا يتحقق إلا بالسماحة فإن المسلم يحرص على التحلي بها في سائر المعاملات مع المسلمين وغير المسلمين المسلمين عملاً بقول النبي ﷺ: «رحم الله رجلاً سمحاً إذا باع، وإذا اشترى، وإذا اقتضى».^(٢) وليست هذه السماحة والرحمة في حال دون حال، بل إنها كما تكون في وقت اليسر والسلم تكون وقت الشدائد، بل حتى في وقت الحروب حين يضطر المسلمون للتصدي للعدوان، وممارسة حقهم المشروع في الدفاع عن أنفسهم يمثلون لتعاليم دينهم التي تأمرهم ألا يقتلوا شيخاً كبيراً، ولا راهباً في صومعته، ولا امرأةً غير محاربة، ولا طفلاً، وألا يحرقوا زرعاً، وألا يهدموا بيتاً أو بناء.^(٣)

(١) انظر د. علي جمعة، المساواة الإنسانية في الإسلام بين النظرية والتطبيق، دار المعارف، القاهرة، ط١، ٢٠١٤م، ص ١٣٨ وما بعدها.

(٢) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب السهولة والسماحة في الشراء والبيع، ومن طلب حقاً فليطلبه في عفاف، الحديث رقم ٢٠٧٦.

(٣) انظر د. أحمد عمر هاشم، التصوف في مواجهة التكفير والتطرف، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٠.

هذه هي تعاليم الإسلام حتى في وقت نزال العدو، فما بالنابه في وقت السلم، إنه يعد العدوان على نفس واحدة عدواناً على البشرية جمعاء، قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا يَغْتَرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [سورة المائدة، الآية ٣٢]؛ لأن الاستهتار بحرمة النفس الإنسانية في موطن يغرى بالاستهتار بها في مواطن أخرى؛ ولأن العدوان عليها في شخص يغرى بالعدوان عليها في أشخاص، بل في دولة برمتها.^(١)

الإسلام واحترام حقوق الإنسان

وينطلق المسلمون في تعايشهم مع الآخرين أيًا كانت دياناتهم أو مللهم على أساس متين هو احترام حقوق الإنسان، فكل من درس الشريعة الإسلامية يعلم أن مقاصدها - منذ كانت - تتمثل في قيام مصالح الناس في الدين والدنيا معًا، وقد روعى في كل حكم من أحكامها إما حفظ شيء من الضروريات الخمس، وهي: (الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال) والتي تُعد أسس العمران المرعية في كل ملة، وإما حفظ شيء من الحاجيات كأنواع المعاملات، وإما حفظ شيء من التحسينيات التي ترجع إلى مكارم الأخلاق، وإما تكميل نوع من هذه الأنواع بما يعين على تحقيقه.^(٢)

وحفظ هذه الأنواع المشار إليها يعني حمايتها من أي اعتداء عليها، وهذه الحماية حق لكل فرد، فهي - إذن - تمثل حقوقًا للإنسان بكل ما تحمل الكلمة من معنى. وترجع حقوق الإنسان في الإسلام - بصفة عامة - إلى حقين أساسيين، هما: حق الإنسان في المساواة، وحقه في الحرية. وكل حقوق الإنسان الأخرى تنبثق من هذين الحقين.

ويؤسس القرآن الكريم حق الإنسان في المساواة على قاعدتين رئيسيتين، هما: وحدة الأصل البشري، وشمول الكرامة الإنسانية لكل بني آدم.

أما وحدة الأصل البشري فقد أكدها القرآن حين أشار إلى أن الناس جميعًا خلقوا من نفس واحدة، فلا مجال في الإسلام لامتيازات طبيعية لفئات أو طبقات أو أجناس أو شعوب في

(١) المرجع السابق، ص ١١.

(٢) انظر الشاطبي، الموافقات في أصول الأحكام، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، بدون تاريخ، ج ٢، ص ٣ وما بعدها.

مقابل شعوب أخرى، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ [سورة النساء، الآية ١]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [سورة الحجرات، الآية ١٣].

وأما القاعدة الثانية للمساواة فهي شمول الكرامة الإنسانية لكل البشر بلا استثناء لتكون سياجاً من الحصانة والحماية لكل فرد من أفراد الإنسان، لا فرق بين غني وفقير، أو حاكم ومحكوم، فالجميع أمام الله وأمام القانون وفي الحقوق العامة سواء. ومن المعلوم أن حق المساواة في المجتمع الإسلامي مكفول للمسلمين ولغير المسلمين على السواء. ^(١) فقد اتفقت المذاهب الإسلامية على أن غير المسلمين لهم حق الملكية الخاصة، وأن أموالهم معصومة، وهم في حماية المجتمع المسلم بجميع مؤسساته، ^(٢) فمن سرق مال ذمی قطعت يده، ومن غصبه عُرِّر وأعيد المال إلى صاحبه، ومن استدان من ذمی فعليه أن يقضى دينه، فإن مطله وهو غنى حسبه الحاكم حتى يؤدي ما عليه شأنه في ذلك شأن المسلم ولا فرق.

وقد بلغ من رعاية الإسلام لحرمة أموال غير المسلمين وممتلكاتهم أنه يحترم ما يعدونه -بحسب اعتقادهم- مالاً وإن لم يكن مالاً في نظر المسلمين، فالخمر والخنزير لا يُعتبران عند المسلمين مالاً مُتقوماً، ولا يجوز للمسلم أن يمتلك أيهما، لا لنفسه ولا لبيعها للغير. أما الخمر والخنزير إذا ملكهما غير المسلم فهما مالان كغيرهما، بل هما من أنفس الأموال عنده، فمن أتلفهما عُرِّم قيمتهما، وهذا الحكم بخلاف ما لو كانا ملكاً لأحد من المسلمين؛ فلا يضمن المتلف لهما شيئاً. وبذلك يسن الإسلام أعدل القوانين في التعامل مع الآخر.

ولم يهتم تشريع بحماية الأعراس كما اهتم شرعنا الحنيف، فالإسلام يعتبر أي أذى معنوي أو اتهام بالباطل يتعرض له غير المسلم يصيب كرامته وشرفه في المجتمع معصية لله ورسوله شأنه في ذلك شأن المسلم. ^(٣)

(١) انظر د. محمود حمدي زقزوق، الإنسان والقيم في التصور الإسلامي، دار الرشد، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٣م، ص ٧٥ وما بعدها.

(٢) انظر اجناس جولد تسيهر، العقيدة والشرعية في الإسلام، ترجمه إلى العربية وعلق عليه: د. محمد يوسف موسى، ود. علي حسن عبد القادر، وأ. عبد العزيز عبد الحق، دار الكتب الحديثة، مصر، ط ٢، ١٩٥٩م، ص ٤٦ وما بعدها.

(٣) انظر د. علي جمعة، المساواة الإنسانية في الإسلام بين النظرية والتطبيق، ص ١٤٢ وما بعدها.

الإسلام والعدل

لكن التعايش الذى أقامه الإسلام على احترام ورعاية حقوق الإنسان العامة والمساواة فيها بين الناس أجمعين لا يعنى إهدار العدالة، لأنه من المقرر عند العقلاء ذوى الفطر السليمة أن بعض المساواة عدل لا شك فيه، وبعضها ظلم لا شك فيه؛ لأن مساواة من يستحق بمن لا يستحق هى الظلم بعينه، والمساواة بين جميع الأشياء هى العدم المطلق؛ إذ لا بد من اختلاف ليقال هذا شيء وذاك شيء، وإن لم يكن اختلاف لم يكن شيء، وإنما هو العدم المطلق الذى لا محل فيه لموجود.^(١)

ودعوة الإسلام إلى العدل بمفهومه الصحيح هى فى الحقيقة دعوة إلى حرية الإنسان وكرامته وتأكيد حقوقه العامة. فالعدل مرتبط ارتباطاً وثيقاً بحقوق الإنسان،^(٢) لأنه إذا كان الناس فى أصل فطرتهم وخلقتهم متساوين فإنه من العدل أن تكون للجميع حقوقٌ متساوية أيضاً على مستوى الأفراد والجماعات. ومن هنا فإن العدل لن يتحقق إلا بكفالة كل الحقوق الإنسانية للجميع، فمن العدل أن يتمتع كل فرد بحقه فى حياة كريمة.^(٣)

كما أن إقرار العدل له علاقة وثيقة بإقرار السلام، فإذا وقع خلل فى هذا الصدد فإن السلام يكون مهدداً، الأمر الذى يتطلب اتخاذ كل التدابير المشروعة الكفيلة بإزالة هذا الخلل.^(٤)

والعدل - فى الرؤية الإسلامية - فريضة واجبة، وضرورة من الضرورات الاجتماعية والإنسانية وليس مجرد «حق» من الحقوق التى يجوز لصاحبها التنازل عنها إن هو أراد، أو أن يفرط فيها دون وزر وتأثيم.^(٥)

ومن ثم فإن الإسلام أشاد بالعدل ودعا إليه وأوجبه بين العدو وعدوه، والقريب والقريب، وكذلك فى المعاملات، قال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا أَعْدِلُوا هُوَ

(١) انظر عباس محمود العقاد، الديمقراطية فى الإسلام، دار اليقين، مصر، ط ١، ٢٠١٦م، ص ١٠٩.

(٢) انظر يوسف الحمادى، الإسلام وروح التسامح والرفق، دار مصر للطباعة، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٨٠.

(٣) انظر د. محمود حمدى زقزوق، الدين للحياة، دار الرشد، القاهرة، ط ١، ٢٠١٠م، ص ٩٤ وما بعدها.

(٤) انظر د. إبراهيم البيومى غانم، المبادئ العامة للنظرية الإسلامية فى العلاقات الدولية، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٨.

(٥) انظر د. محمد عمارة، مقومات الأمن الاجتماعى فى الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ٥٨.

أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴿ [سورة المائدة، الآية ٨]، وقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتُوبًا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ؕ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ؕ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ؕ وَإِن تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿ [سورة النساء، الآية ١٣٥]، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴿ [سورة النساء، الآية ٥٨].

كما أوجب الإسلام العدل في دعوى الأنبياء والهداة، قال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ ءَامَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلْنَا وَلَكُمْ أَعْمَلْنَا وَكُنَّا بِبَيْنِكُمْ لَحِجَّةً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿ [سورة الشورى، الآية ١٥].

ولا يسوى بين جائر وعادل، قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمٌ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿ [سورة النحل، الآية ٧٦].

فالمساواة التي تجب في الشريعة الصالحة هي المساواة التي لا غبن فيها على أحد، أما المساواة التي فيها الغبن وخيم العقبى والتي تُبطل مزايا العمل وفضائل الرجحان، وتُقعد ذوى المساعى عن مساعيهم فلا يُقرها سائر العقلاء المنصفين ذوى الفطر السوية. (١)

فليس في عقيدة المسلم نظامٌ بين السماوات والأرضين لا يستقر على هذا الأساس: إله رحمن رحيم يُجرى الكون على سنن، ويحاسب الخلق ببلاغ ونذير، ولا يظلم أحداً، وما هو بظلام للعبيد. ونبي ليس بالمسيطر ولا بالمتجبر، ولكنه بشير ونذير، والأمر بينه وبين أمته على المشاورة ومكارم الأخلاق. وإمام يطيع قبل أن يُطاع، ويتولى الحكم من أيدي المحكومين. (٢)

كما أن العدل اللازم للتعايش يوجب في المنظور الإسلامى - المساواة والمشاركة بين عموم الجماعة الإنسانية من منطلق المساواة فى الإنسانية فى التمكين من الانتفاع بمنافع الكون، وفى

(١) انظر محمد الغزالي، الإسلام المفترى عليه، دار نهضة مصر، القاهرة، ٢٠١٥م، ص ٤٢.

(٢) انظر عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط ٢، ٢٠١٣م، والعقاد، الديمقراطية فى الإسلام ص ٢١١.

توفير القدر اللازم لاستمرار حياة الإنسان. (١) قال تعالى: ﴿كَلَّا نُمَدُّ هَتُوْلَاءَ وَهَتُوْلَاءَ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [سورة الإسراء، الآية ٢٠]، وقال: ﴿وَبَرَكَ فِيهَا وَقَدَّرْنَا فِيهَا أَقْوَامَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ [سورة فصلت، الآية ١٠].

ويستلزم العدل - في المنظور الإسلامي - أيضًا المساواة بين عموم البشر في حق التعبير عن الرأي الذي هو جزء من الحريات العامة في الدولة الإسلامية، وهو حق من حقوق الإنسان الطبيعية التي يتساوى الجميع في نواها. وبناء على ذلك وجب تنظيم هذه الحرية حتى يأخذ كل فرد في المجتمع منها نصيبه ولا يعتدى على نصيب غيره، أو يعتدى في تعبيره على خصوصية الآخرين وحريتهم في الاختيار والتوجه. (٢)

كما احترم الإسلام حق غير المسلمين في تقرير مصيرهم، فلم يرهقهم المسلمون، ولم يظلموهم، ولم يفسدوا عليهم أمورهم، بل كانوا يخبرونهم بين أن يعاهدوهم أو يدخلوا في دينهم من غير إكراه ولا ضغط ولا فتنة في الدين، ولم يقاتلوهم إلا إذا ناوءوهم وأعلنوا لهم العداوة، وما حاربوا معتدين، بل كانوا يحاربون مدافعين، (٣) قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَعْدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [سورة البقرة، الآية ١٩٠].

بل إن الإسلام أوجب على أتباعه التزامات وواجبات مالية وكان لغير المسلم نصيب فيها، وذلك كزكاة المال أو صدقة الفطر، (٤) قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَاةِ فُلُوْهُنَّ فِي الرِّقَابِ وَالْغُرْمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ﴾ [سورة التوبة، الآية ٦٠].

كما يصح الوقف على أهل الذمة، لأن الواقف مالك، وله أن يجعل ماله حيث شاء ما لم يكن معصية عندنا وعندهم. (٥)

ويجوز أيضًا الدعاء للمشركين بالهداية إلى الحق، فقد أورد البخاري في صحيحه من

(١) انظر د. على جمعة، المساواة الإنسانية في الإسلام بين النظرية والتطبيق، دار المعارف، القاهرة، ط١، ٢٠١٤م، ص ٦٩.

(٢) انظر المرجع السابق ص ٧٣.

(٣) انظر محمد أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ١٥٠.

(٤) انظر ابن القيم، أحكام أهل الذمة، دار التوفيقية للطباعة، القاهرة، ط١، ٢٠١٤م، ص ٢٩٤.

(٥) انظر محمد أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع ص ١٣٤.

حديث أبي هريرة قال: «قدم طفيل بن عمرو الدوسي وأصحابه على النبي ﷺ فقالوا: يا رسول الله إن دوساً عصت وأبت، فادع الله عليها، فقيل: هلكت دوس. قال: اللهم اهد دوساً وائت بهم». (١)

كما يجوز عيادة المرضى غير المسلمين، يدل على ذلك أن أبا طالب لما حضرته المنية دخل عليه النبي ﷺ وعنده أبو جهل فقال: «أى عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله». (٢)

وهناك كثير من الأحكام الشرعية الإسلامية التي يتساوى فيها المسلم مع الذمي، فهما يتساويان في القصاص، قال تعالى: ﴿وَكَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ وَمَن لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُم الظَّالِمُونَ﴾ [سورة المائدة، الآية ٤٥]. وهما سواء في الديات والضمان والتعازير، يجري على الذمي ما يجري على المسلم في بعض المذاهب الفقهية.

وفي الأحوال الشخصية أبيع للذمي كل زواج يقره دينه وإن خالف الدين الإسلامي، وأبيع له كل طلاق وإن لم يتفق مع الإسلام، وليس للإسلام أن يتعرض للذمين في شيء من هذا إلا إذا احتكموا إليه. وسوى الإسلام في الحرمان من الميراث بين الذمي والمسلم، فلا يرث المسلم قريبه الذمي، ولا يرث الزوج المسلم زوجته الكتابية وهي كذلك لا ترثه، قال ﷺ: «لا يرث المسلم الكافر، ولا يرث الكافر المسلم». (٣)

وأباح الإسلام للمسلمين أن يأكلوا من طعام أهل الكتاب وذبايحهم بشرط أن يكون المذبوح مما يحل للمسلمين أكله، قال تعالى: ﴿آلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلٌّ لَهُمْ﴾ [سورة المائدة، من الآية ٥].

كما أحل الإسلام للمسلم أن يتزوج كتابية وتبقى على دينها، ولها من الحقوق على زوجها مثل ما للمسلمة، قال تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ وَلَا مُمْتَخَذِينَ﴾ [سورة المائدة، من الآية ٥].

(١) صحيح البخارى بشرح ابن حجر، كتاب الجهاد والسير، باب الدعاء للمشركين بالهدى ليتألفهم، الحديث رقم ٣٩٣٧.

(٢) صحيح البخارى بشرح ابن حجر، كتاب التفسير، باب «إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء»، الحديث رقم ٤٧٧٢.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الفرائض، الحديث رقم ١٦١٤.

وقد بُنى هذا على سباحة الإسلام مع أهل الكتاب؛ لأن الزوج المسلم مؤمنٌ بالمسيحية، ومصداق بموسى وعيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، فهو لا يجبر زوجته الكتابية على الإسلام؛ ولأن في المصاهرة قضاء على الأحقاد، ولهذا كثيراً ما تزوج المسلمون بكتابات.

كما كفل الإسلام لأهل الكتاب حرية ممارسة شعائرهم الدينية في كنائسهم، ولهم إخراج صلبانهم يوم عيدهم.^(١)

وأباح الإسلام للمسلمين أن يعاملوا الذميين جميع المعاملات المباحة، فلهم أن يضيفوهم ويستضيفوهم وأن يبادلوهم الهدايا، وأن يستأجروا منهم، وأن يشاركوهم التجارة.^(٢)

فالقسط إذن مطلوب من المؤمن بالله على كل وجه وفي كل حال مع الإنسان والحيوان والنبات، مع النفس والغير، مع المؤمن والكافر، مع المسالم والمحارب، قال تعالى: ﴿لَا يَنْهَكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِينِكُمْ أَن يَرْوَاهُمْ وَتَفْسِدُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [سورة الممتحنة، الآية ٨]. وفي هذه الآية منهج يحقق السلام الاجتماعي بين الناس، وهي تتحدث عن مستوى أعلى من مستوى إعطاء الحقوق وأخذها، وهو مستوى تقديم البر والإحسان والفضل.^(٣)

فالشريعة الإسلامية أمرت بالفضيلة مع الأعداء والأولياء، ولو كان الأعداء لا يلتزمون هذه الفضيلة، فإن الفضيلة كمالٌ للفاضل، وليست معاملةً بالمثل، فلا يقلد الفاضل الشرير، وإلا زالت الفضائل من هذه الأرض.^(٤)

والمسلم مأمورٌ بالآجادل أهل الكتاب المسالمين إلا بالتى هى أحسن، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ﴾ [سورة العنكبوت، الآية ٤٦]. ومأمورٌ أيضاً بأن يحسن جوارهم، قال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ [سورة النساء، الآية ٣٦].

(١) انظر طارق عبد الله، الوحدة الوطنية في الإسلام، دار الفاروق، مصر، ط ١، ٢٠٠٦م، ص ٧١.

(٢) انظر ابن القيم، أحكام أهل الذمة، دار التوفيقية للطباعة، القاهرة، ط ١، ٢٠١٤م، ص ٢٠٠، و ٥٣٣ وما بعدها.

(٣) انظر د. عبد العظيم المطعني، مبادئ التعايش السلمي في الإسلام منهجاً وسيرة، دار الفاروق، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٥م، ص ٦٥.

(٤) انظر محمد أبو زهرة، تنظيم الإسلام للمجتمع، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٩٩م، ص ١٥.

وأوصى الإسلام بصلة الرحم ولو لغير مسلم، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَذَا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصْلَهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَىٰ الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴿١٥﴾﴾ [سورة لقمان، الآيتان: ١٤، ١٥]، وقال ﷺ: «إنكم ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً»^(١) فالنبي ﷺ أوصى المسلمين بأهل مصر وهم حينئذ في مجملهم نصارى، وعلل ذلك بأن فيهم نسباً من طريق هاجر أم إسماعيل، وصهرًا من طريق مارية أم إبراهيم.

وفي زمن الخلفاء كان المسلمون يُرقون العلماء - بقطع النظر عن دينهم - ويقلدونهم المناصب الرفيعة، كما كانت إدارة المدارس مفوضة مع نبل الرأي وسعة الفكر من الخلفاء إلى النصارى النسطوريين تارة، وإلى اليهود تارة أخرى، ولم يكن يُنظر إلى البلد الذي عاش فيه العالم أو الدين الذي يعتنقه، بل لم يكن يُنظر إلا إلى مكانته من العلم والمعرفة. فعلى سبيل المثال وضع هارون الرشيد جميع المدارس تحت مراقبة يوحنا بن ماسويه، واتخذ المنصورُ جيورجيس بن بختيوشع طبيباً له، وأعلى مكانته حتى على وزرائه. ومن حظى بالمكانة العليا عند الخليفة المهدي: تيوفيل بن توما النصراني المنجم، كما عُرف حينئذ بن إسحق النصراني بفصاحة العبارة وحسن الترجمة في زمن المأمون وهو فتى، فكلفه بترجمة الكتب، وكان يعطيه وزن ما يترجم ذهباً، كما بلغ ثابت بن قرة الصابئ مكانةً رفيعةً عند العامة والخاصة في زمن المعتضد، لنبوغه في الطب والرياضيات والمنطق^(٢).

إن مثل هذه المعاملة من المسلمين لغير المسلمين تُطلع العالم أجمع على أن الإسلام ربِّي أتباعه على التسامح وعلى رعاية حقوق الناس وعلى الرحمة بجميع البشر مهما اختلفت عقائدهم وأجناسهم^(٣).

وإذا كان الأمر كذلك فمن ذا الذي يتطلع إلى أكثر من العدالة التي سادت الأمة الإسلامية، وتحققت بين أبنائها، كما تحققت بينها وبين الدول الأجنبية عنها على نحو منقطع النظير.

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب فضائل الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، باب وصية النبي ﷺ بأهل مصر، الحديث رقم ٢٥٤٣.

(٢) انظر الإمام محمد عبده، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، دار المعارف، القاهرة، ٢٠١٢م، ص ٢٦ وما بعدها.

(٣) انظر د. أحمد عمر هاشم، الإسلام دين التسامح، دار الفاروق، القاهرة، ط ٢، ٢٠٠٨م، ص ١٥.

الإسلام وحرية الاعتقاد

ولما كان التعايش السلمى بين الناس أجمعين يستلزم حرية الاعتقاد التي هي حق رئيس من حقوق الإنسان فإن الإسلام قد أحترمها، ولم يُكره الناس يوماً على مدى تاريخه حتى يتبعوه، بل إنه جعل الدعامة الأولى للتدين حرية العقل والإرادة؛^(١) لأن الإكراه لا يكون العقائد، بل على العكس ينفر منها، ويسىء بها الظنون، وطبائع الأشياء ترسم للعقائد طريقاً يبدأ حتماً من الحرية العقلية المطلقة،^(٢) قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ [سورة البقرة، الآية ٢٥٦]، وقال: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يونس، الآية ٩٩]، وقال: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [سورة الكهف، الآية ٢٩].

كما كانت حياة الرسول ﷺ نموذجاً وقدوة على التعايش السلمى الذى يحفظ على الإنسان كرامته الإنسانية وحرية الدينونة الكاملة، «فقد صالح رسول الله ﷺ نصارى نجران وأقامهم فى سَطْر مسجده يؤدون شعائر دينهم وكتب لهم عهداً جاء فيه: ولنجران وحاشيتهم جوار الله وذمة محمد النبى رسول الله على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدم ويبيعهم، لا يُغَيَّرُ أسْقْفٌ عن سَقِيْفَاهُ، ولا راهب عن رهبانيتها، ولا واقف عن وَقْفَانِيَّتِهِ.. وأن لهم ما تحت أيديهم من قليل وكثير من بيعهم وصلواتهم ورهبانيتهم، لا يُحْشَرُونَ ولا يُعْشَرُونَ، ولا يبطأ أرضهم جيشٌ، ولا يُغَيَّرُ حق من حقوقهم ولا سُلْطَانُهُمْ ولا شَيْءٌ مما كانوا عليه ما نصحوا وأخلصوا فيما عليهم غير مُثْقَلِينَ بظلم أو ظالمين».^(٣)

وعندما هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة أسس أول دولة مدنية عرفها التاريخ بسودها التعايش السلمى والمناصرة والتناصح والتعاون على البر من دون الإثم والمشاركة بين جميع أطيافها من مسلمين ويهود ومشركين وجماعات من النصارى لحقت بها بعد ذلك، هذه الدولة

(١) انظر عبد المتعال الصعدي، حرية الفكر فى الإسلام، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٠م، ص ٦٦.

(٢) انظر محمد الغزالي، الإسلام والاستبداد السياسى، دار نهضة مصر، القاهرة، ط ١١، ٢٠١٥م، ص ١١٤ وما بعدها.

(٣) ابن سعد، الطبقات الكبرى، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، ط ١، ١٩٩٨م، ج ١ ص ٢٦٦، ٣٥٨.

المدينة تحترم «حق المواطنة» الذي يقوم على أساس المساواة في الحقوق والواجبات دون النظر إلى الانتماء الديني أو العرقي أو المذهبي أو أية اعتبارات أخرى، فالاعتبار الوحيد هنا هو الإنسانية والمواطنة،^(١) فوضع النبي ﷺ دستوراً وقواعد تنظم العلاقات السياسية والاجتماعية بين سكان المدينة قال فيها: «وإنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأُسوة غيرَ مظلومين ولا متناصرين عليهم».^(٢)

والعدالة في هذه الوثيقة تمثلت في توافق الحقوق والواجبات وتناسقها، فإنها تضمنت حقوق الأفراد جميعاً في ممارسة الشعائر الدينية الخاصة، وحقوقهم في الأمن والحرية وصورون أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ودور عبادتهم. كما قامت هذه الوثيقة على أربعة محاور:

الأول: التعايش السلمى بين الجميع، وتوفير الأمن للجميع، قال: «أنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم وأثم، وأن الله جارٌّ لمن برَّ واتقى»، وقال: «وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم».

والثاني: المحافظة على الحرية الدينية للجميع، قال: «وأن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم».

والثالث: إعطاء الفرصة للجميع في المشاركة الاجتماعية والسياسية والعسكرية بصورة عادلة.

والرابع: إقرار مبدأ المسؤولية الفردية، وأصل هذه المسؤولية الفردية الإعلان عن النظام، وأخذ الموافقة عليه،^(٣) قال: «أنه لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره، وأنه لا يأتهم امرؤ بحليفه وأن النصر للمظلوم».

إن هذه الوثيقة تعد أول دستور حقوقى مكتوب في التاريخ يعترف بحقوق المواطنة لجميع

(١) انظر د. على جمعة، نماذج الأربعة من هدى النبي ﷺ في التعايش مع الآخر، الأسس والمقصد، دار الفاروق، القاهرة، ط ١، ٢٠١٣م، ص ٣٦ وما بعدها.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق إيهاب أحمد هاشم، دار البيان العربي، القاهرة، ٢٠٠٥م، ج ٢، ص ٧١.

(٣) انظر د. على جمعة، المساواة الإنسانية في الإسلام بين النظرية والتطبيق، دار المعارف، القاهرة، ط ١، ٢٠١٤م، ص ٩٠.

سكان الدولة باعتبارهم «أمة من الناس»، فهم جميعاً شركاء في نظام سياسي واحد يضمن لهم حقوقاً متساوية، ويستظلون بحماية الدولة مقابل أدائهم واجباتهم في الدفاع عنها، لذا وقّع على هذه الوثيقة سكان المدينة كلهم، ورُضوا بها دستوراً حاكماً بينهم لما وجدوه بها من عدل ومساواة واحترام لكافة حقوق الإنسان العامة بما فيها حرية التدين، فسبقت المدينة المنورة غيرها من مناطق العالم ومدنه في تحقيق دولة مدنية قوية تضمن حقوق المواطنة، وتُمنى شعور الهوية والانتماء لدى أفرادها، وتثير العالم بنظامها المدني الحديث، ودعوتها الدينية السامية، فكانت بحق نموذجاً لدولة القيم والأخلاق والدستور والمواطنة.^(١)

فالدولة الإسلامية إذن تعتمد التعددية الدينية والسياسية والفكرية في الأمة ليس باعتبارها فقط من تجليات الحرية وحقاً من حقوق الإنسان، وإنما باعتبار هذه التعددية سنة وقانوناً كونياً واجتماعياً لا تبديل له ولا تحويل، فالواحدية والأحدية للخالق - سبحانه - فقط، أما ما عداه في عوالم الخلق فقام على سنة التعدد والتمايز والاختلاف^(٢) القائمة على التسامح الذي هو أكثر من مجرد قبول الآخر، لأنه يتجاوز إلى الاعتراف بحقه في التباين،^(٣) ووضع نظام القيم والمواقف والمؤسسات والعمليات التي يمكن أن تترجم هذا الواقع المتنوع إلى تماسك اجتماعي مستدام، واستقرار سياسي، وتنمية اقتصادية،^(٤) ضمن نظام متكاملٍ مُعتمدهُ مبدأ التعايش السلمي.^(٥)

ويزيد الأمر وضوحاً ما جاء في كتاب رسول الله ﷺ إلى ملك اليمن: «وإنه من أسلم من يهودي أو نصراني إسلاماً خالصاً من نفسه ودان بدين الإسلام فإنه من المؤمنين له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يُردُّ عنها».^(٦)

وقال رسول الله ﷺ: «من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً».^(٧)

(١) السابق، ص ٣٨.

(٢) انظر د. محمد عمارة، في النظام السياسي الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٨م، ص ٤٧.

(٣) انظر د. عصام عبد الله، التسامح، أطلس للنشر والإنتاج الإعلامي، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٧م، ص ٥٥.

(٤) انظر د. عبد الله أحمد النعيم، الإسلام وعلمانية الدولة، دار ميريت، القاهرة، ط ١، ٢٠١٠م، ص ٣٠٣.

(٥) انظر د. علي جمعة، أمن المجتمع واستقراره من منظور إسلامي، دار المعارف، القاهرة، ط ١، ٢٠١٤م، ص ٨٥.

(٦) ابن هشام، السيرة النبوية، تحقيق إيهاب أحمد هاشم، دار البيان العربي، القاهرة، ٢٠٠٥م، ج ٤، ص ١٥٢.

(٧) صحيح البخاري بشرح ابن حجر، كتاب الجزية والموادعة، باب إثم من قتل معاهداً بغير جرم، الحديث

وقال أيضًا: «ألا من ظلم معاهدًا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة»^(١).

ومما يؤكد احترام الإسلام حرية الاعتقاد أنه ميز بين صنفين من المرتدين عن الإسلام: الأول: المرتد الذي خرج عن الإسلام بتغيير معتقده دون حراية أو فوضى أو إثارة فتنه، والثاني: المرتد الذي أدت به رده إلى الخروج على الإسلام بحركة عدائية ملموسة انقلب فيها على ولائه للدولة الإسلامية، واستخف بدينها، وخان الجماعة، وتمرد على الشرائع والقوانين على نحو يؤذن بانفراط عقد الجماعة وانهايار كيانه السياسي والاجتماعي، وسعى إلى إثارة الشبهات التي تقوم في نفسه فقط وقد لا تكون قائمة عند سواه، وإذاعة هذه الشبهات وإشاعتها بين الناس ودعوتهم إلى تبنيها وتصويرها كما لو كانت حقائق علمية تصادم حقائق الدين أو عقائد تنافس عقائد الإسلام، ومعارضة شرائع الإسلام جملة أو إنكار صحة بعضها مهما بدا جزئيًا، كل أولئك أو بعضه تتحقق به حالة متميزة عن العقيدة الخاصة المخالفة لعقيدة الإسلام.^(٢)

فالأول جزاؤه معنوي فقط في الدنيا احترامًا لحقه في اعتقاد ما يشاء، ومادى ومعنوى في الآخرة، يدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أزدَادُوا كُفْرًا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء، الآية ١٣٧]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ - فَيَمُتْ وَهُوَ كَاْفِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [سورة البقرة، الآية ٢١٧]، أما الثاني فجزاؤه مادي ومعنوى في الدنيا والآخرة؛ لأنه اجتمع فيه وصفان: الكفر، والحرب، يدل على ذلك ما أورده البخارى من حديث أبي قلابة قال: «والله ما قتل رسول الله ﷺ أحدًا إلا في إحدى ثلاث خصال: رجل قتل بجريرة نفسه فقتل، أو رجل زنى بعد إحصان، أو رجل حارب الله ورسوله وارتد عن الإسلام»^(٣)، وكذلك ما أورده مسلم في صحيحه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يحل دم امرئ

(١) سنن أبي داود، كتاب الخراج والفتىء والإمارة، باب تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارا، الحديث رقم ٣٠٥٢.

(٢) انظر د. عبد الله أحمد النعيم، الإسلام وعلمانية الدولة، دار ميريت، القاهرة، ط ١، ٢٠١٠م، ص ١٦٤ وما بعدها، ود. علي جمعة، المساواة الإنسانية بين النظرية والتطبيق ص ٩٥ وما بعدها.

(٣) صحيح البخارى بشرح ابن حجر، كتاب الديا، باب القسامة، حديث رقم ٦٨٩٩.

مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»^(١).

ومما يؤكد احترام الإسلام حرية الاعتقاد - أيضًا - اللازمة للتعايش والأمن والسلام في المجتمع الإنساني أنه كان يكتفى من الفتح بإدخال الأرض تحت سلطانه، ثم يترك الناس وما كانوا عليه يؤدون ما يجب عليهم في اعتقادهم كما شاء ذلك الاعتقاد، وإنما يكلفهم بجزية يدفعونها عونًا على صيانتهم والمحافظة على أمنهم في ديارهم وهم في عقائدهم وعباداتهم وعاداتهم بعد ذلك أحرارًا لا يُضايقون في عمل ولا يضامون في معاملة.^(٢) وذلك لأن إحلال السلام والأمن والاستقرار السياسى، والتنمية الاقتصادية في المجتمع الإنساني - وفق الرؤية الإسلامية - يمر عبر نظام للعلاقات الدولية تحكمه قيم العدل، والمساواة، والحرية، وتحوطه أخلاقيات الوفاء بالعهود، والأمانة، والصدق، وتقوده مبادئ التعاون، والاعتماد المتبادل، والعمل المشترك.^(٣)

(١) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات، باب ما يباح به دم المسلم، الحديث رقم ١٦٧٦.

(٢) انظر الإمام محمد عبده، الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، دار المعارف، القاهرة، ٢٠١٢م ص ٦٨ وما بعدها.

(٣) انظر د. إبراهيم البيومى غانم، المبادئ العامة للنظرية الإسلامية في العلاقات الدولية، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ، ص ١٧.

الفصل الثالث

أبرز التحديات التي تواجه التعايش بين الأديان وكيفية مواجهتها

رسالة الغرب للمسلمين

وعلى الرغم من أن الإسلام دين التسامح، والعدل، والمساواة، واحترام حقوق الإنسان، والأخلاق السامية، والمحبة، والتعايش السلمى بين الناس أجمعين دون تعصب عرقى، أو دينى، أو مذهبي - إلا إنه يُواجه بتيار شديد التعصب في الغرب دون مبرر، يريد أن يبلغ المسلمين النقاط الآتية:

أولاً: حضارة الغرب هي الحضارة الوحيدة التي يجب أن تكون عالمية.

ثانياً: قيم الغرب هي التي تضمن حقوق الإنسان وهي محل تقديس ولن يُسمح لأحد بتهديدها.

ثالثاً: الأيديولوجيا الغربية في الاقتصاد والسياسة هي الأفضل على مستوى العالم.

رابعاً: مصالح الغرب في بلاد المسلمين هي مسئولية الحكومات في هذه البلاد، ولن يُسمح بالمساس بهذه المصالح.

خامساً: الغرب ليس مسئولاً عن تخلف العرب والمسلمين الذين يجب عليهم التخلي عن قيمهم البالية إذا أرادوا التقدم العلمى والتكنولوجى.

سادساً: كل ما تفوّه به العرب عن حق الدفاع عن النفس فهو إرهاب ولن يتهاون الغرب معه.

سابعاً: إسرائيل هي الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط، ولن يتخلى الغرب عنها.

ثامناً: على الحركات الإسلامية في المجتمعات العربية أن تتحول إلى حركات سياسية تنبذ العنف، وتشارك في الحياة السياسية، وتؤدى دوراً مُفُنِعاً في مؤسسات الدولة، مع أن الحكومات الغربية تتصل بأمرأء هذه الجماعات المتطرفة، وتمنحها حق اللجوء السياسى ضد رغبة الحكومات العربية والإسلامية القائمة.

تاسعاً: على الأنظمة العربية أن تكون مستعدة لتقبل نتائج الديمقراطية بحيث تكون مستعدة للاعتراف بالهزيمة والانضمام إلى الحياة المدنية العادية، وتشجيع الديمقراطية في العالمين: العربي، والإسلامي، بشرط ألا تأتي بحكومات ذات مرجعية دينية، وإلا انقلب الغرب على قواعد اللعبة الديمقراطية،^(١) كما هو الحال في النموذج الجزائري.

رسالة المسلمين إلى الغرب

وفي المقابل أيضاً يوجه المسلمون رسالة شديدة الوضوح إلى الغرب يمكن تلخيصها في نقاط:

أولاً: الحد من الاعتداء على المسلمين وظلمهم، ومنع تحرش السفهاء بهم في المجتمعات الغربية. ثانياً: التوقف عن العبث العلمي والتاريخي الذي يصف رسالة الإسلام بأنها بدعة إنسانية، والكف عن اتهام الرسول ﷺ بصفات لا تليق به.

ثالثاً: العمل على إعادة صياغة الموقف المسيحي من الإسلام وأهله بما يتناسب مع الحقائق بعيداً عن نسيج الأوهام والرغبات والأطباع.

رابعاً: إخراج قضية الحوار من الجدل العقيم إلى سلوك ترتضيه جميع الأطراف.

خامساً: بسط الحقائق المجردة، والتسليم للحق، والتخلي عن منطق الاستعلاء في الحوار، ومحاولة تبرئة الممارسات المنحرفة عن جادة الصواب بقصد إنقاذ السمعة.

سادساً: التخلي عن الإفراط في تقييم الذات، وتداول العقل الجمعي المسيحي على حساب المسلمين.

سابعاً: الكف عن الادعاء الكاذب بأن الإسلام ضد المبادئ العامة للديمقراطية، واتهام أهله بأنهم لا يحترمون حقوق الإنسان في حين أن أمريكا تنتهكها على نحو صارخ كما حدث في سجن أبي غريب بالعراق، وكما هو الحال في معسكر جواتانامو في كوبا على سبيل المثال، فضلاً عن التنصت على هواتف المسلمين واعتقال بعضهم دون إبداء الأسباب.

(١) انظر د. إيهاب حفظي، الإسلام والغرب صراع أم تعايش، إيتراك، القاهرة، ط ١، ٢٠١١م، ص ٢١١ وما بعدها.

ثامناً: الكف عن سياسة توجيه الضربات الاستباقية على نحو غير مبرر بناء على تقارير استخباراتية غير دقيقة بحجة إجهاض الإرهاب المحتمل والحفاظ على الأمن.

تاسعاً: الامتناع عن محاربة ارتداء المرأة المسلمة الحجاب في المجتمعات الغربية كما هو الحال في فرنسا وألمانيا.

عاشراً: الكف عن ازدراء الدين الإسلامي، والامتناع عن تقديم الرسوم المسيئة إلى الرسول ﷺ كما حدث ولا يزال يحدث في الدانمارك بدعوى حرية الفكر والإبداع.^(١)

حادى عشر: التخلي عن استغلال قارة سبتمبر ٢٠٠١م التي تحوم الشكوك حول صانعيها وأهدافهم لتعميق الصورة النمطية التي صنعها الغربيون للمسلمين والتي تنظر إلى عقيدة الإسلام على أنها لا تحترم حقوق الإنسان ومبادئ التعددية والتسامح والحرية الدينية،^(٢) كما تنظر إلى الشعوب الإسلامية على أنها شعوبٌ متخلفة معادية للحضارة والقيم الإنسانية، وتتخذ ذلك ذريعة للهجوم العسكري على بعض بقاع العالم الإسلامي كما حدث في أفغانستان والسودان.^(٣)

ثاني عشر: العدول عن تخيير المسلمين بين العلمنة التي تستلزم طمس الهوية الإسلامية، والتبعية الفكرية للغرب، وبين أن يكونوا العدو الذي تُوجه إليه الحملات الإعلامية الظالمة، والآلات العسكرية الباطشة، تمهيداً للهيمنة الغربية على العالم الإسلامي ونهب ثرواته الذي هو المقصد الأعظم لمشروع الهيمنة الغربي.^(٤)

أبرز التحديات التي تواجه التعايش في الوقت الحاضر

وبعد أن تم إلقاء الضوء على جانب من الرسائل المتبادلة بين المسلمين وغيرهم يحسن

(١) انظر د. إيهاب حفطى، الإسلام والغرب صراع أم تعايش، ص ٢١٣ وما بعدها.
(٢) انظر د. خليفة حسين العسال، التسامح الديني في الإسلام، بحث منشور ضمن كتاب المؤتمر الدولي السابع للفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم جامعة القاهرة بعنوان: «الإسلام والغرب حوار أم صراع»، ٢٠٠٢م، ص ٦١١.

(٣) انظر د. محمد عمارة، صورة الإسلام في الخطاب الغربي، دار المعارف، القاهرة، ٢٠١٠م، ص ٤٣ وما بعدها.

(٤) السابق، ص ٤٥ وما بعدها.

الوقوف على أبرز التحديات التي تواجه التعايش المنشود بين الناس أجمعين على اختلاف أجناسهم وأديانهم وتوجهاتهم الفكرية، والتي يمكن أن نلخصها في نقاط محددة:

(١) ما زالت النظرة القديمة التي سادت العصور الوسطى التي تتوهم في ظهور الإسلام خطراً على وجود الأديان الأخرى مسيطرةً على عقول جماعةٍ محدودةٍ الآفاق بعيدةٍ عن التسامح الديني تحاول أن تبني الحواجز في وجه النور.^(١)

وعلى الرغم من أن المسلمين يؤمنون بنبوة موسى وعيسى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، ويسمحون لغيرهم بالعيش بينهم في أمان، لا يؤمن اليهود وأغلب النصارى بنبوة محمد ﷺ، ويرفضون أن يعيش المسلمون بينهم ويعادونهم على كافة الأصعدة، ويروجون في وسائل إعلامهم أفكاراً مشوهة عن المسلمين تصورهم برابرة وقساة ومتعصبين متعطشين للدماء، ومعادين للغرب وإسرائيل.

وقد سعى هؤلاء بشتى السبل الممكنة إلى التوسع في نشر الصورة النمطية المشوهة للإسلام في الغرب منذ العصور الوسطى حتى الوقت الحاضر، تلك الصورة التي تقدم الإسلام للرأى العام الغربي والعالمي على أنه دين باطل، وضلال متعمد عن الحقيقة، انتشر بالسيف والعنف، وأغرى البسطاء والضعفاء والمهمشين باعتناقه من خلال إباحته الانغماس في اللذات والشهوات والتوسع فيها، فضلاً عن أن نبيه ﷺ معادٍ للمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد فعل الشر حينما أسس ديانته يعارض بها الديانة الحقيقية المسيحية.^(٢)

وأخطر الأباطيل التي ينسبها الغرب إلى الإسلام كما يقول موريس بوكاي: «تلك التي تخص الأمور الفعلية، وإذا كنا نستطيع أن نغفر لأخطاء خاصة بالتقدير فإننا لا نستطيع أن نغفر لتقديم الوقائع بشكل يناهض الحقيقة. بل إننا لنصاب بالذهول عندما نقرأ في أكثر المؤلفات جدية أكاذيب صارخة برغم أن مؤلفي هذه المؤلفات هم بالمبدأ مؤلفون أكفاء».^(٣)

(١) انظر زيغريد هونكه (مستشرق ألماني)، شمس العرب تسطع على الغرب، أثر الحضارة العربية في أوروبا، ترجمة فاروق بيضون وكمال دسوقي، مراجعة فاروق عيسى الخوري، دار الجيل، بيروت، ط ٨، ١٩٩٣م، ص ١٢.

(٢) انظر د. أحمد محمد جاد عبد الرازق، الصور النمطية الغربية للإسلام في العصر الحديث، بحث منشور ضمن أعمال المؤتمر الدولي السابع للفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة، بعنوان: «الإسلام والغرب، حوار أم صراع»، ٢٠٠٢م، ص ٥٤٤ وما بعدها.

(٣) انظر موريس بوكاي، القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، دار المعارف، القاهرة، ط ٥، ٢٠١٥م، ص ١٣٥.

(٢) ومما يؤكد كراهيتهم وحقدهم على الإسلام أنهم جندوا عددًا كبيرًا من المستشرقين للطنن في الإسلام وتشويهه حقائقه. وأسلوبهم الأثير أن يُلبسوا الحق بالباطل، وأن يمزجوا بشتى الحيل بين بعض المعارف الصحيحة والأكاذيب المفتراة في سياق يبدو لقليل الدراية أنه بحث علمي محايد لا ريب فيه، وهدفهم الذي يرنون إليه هو تحطيم الإسلام، لكنهم يختلفون في أسلوب تحقيق هذا الهدف، فممنهم من يغلبه حقه فينثر من كنانته وإبلاً من الشتائم ضد نبي الإسلام ﷺ وصحابته وشريعته، وممنهم من يطوى ضغنه ويتحين الفرص المناسبة لإبداء مطاعنه، وممنهم - انطلاقاً مما قر في نفسه من تكذيب النبوة وما يتبعها - من يميل إلى التحريف والتزييف، وممنهم من تروعه سطوة الحق في هذا الدين فيؤمن بعقله وإن بقى كافراً بقلبه، وممنهم من يستحي - أمام نصوص الحق في هذا الدين - أن يلصق به الاتهامات والخرافات التي لُقنت له، ومع ذلك تبدو منه سقطات في تناول الإسلام ورسالته ورسوله ﷺ، وعلته ذلك أن أولئك المستشرقين يعملون لحساب الاستعمار المسيحي الأوربي والأمريكي، وأنهم جزء من جيش يحاول أن يهد بناء الإسلام الشامخ، وينقض ما ظل سامقاً دهرًا طويلاً من أمجاد أمته. (١)

فعلى سبيل المثال يذكر جولدتسيهر في كتابه «العقيدة والشريعة في الإسلام» أنه من الواضح أننا لا نستطيع أن نطبق في العصر المدني على عمل محمد المثل القائل: «الكلمة أقوى من السيف»، فمنذ تركه مكة تغير الزمن ولم يصر واجباً بعدُ الإعراض عن المشركين، أو دعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة، بل حان الوقت لتتخذ كلمته لهجة أخرى: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرُمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخَذُوهُمْ وَآخِضُوا أَعْقُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ﴾ [سورة التوبة، الآية ٥]، فهو الآن يحمل السيف في العالم، ولا يكفي بعصاه التي يضرب بها الأرض، ولا بنفثات شفثيه لإبادة الكفر، بل هو نفير الحرب الذي كان ينفخ فيه، وهو السيف الدامى الذي رفعه لإقامة مملكته، فكانت مهمته حمل اللقب الذي ورد في التوراة وهو «نبي القتال والحرب»، والنتيجة أنه لم يكن عنده أى إيثار للإسلام (٢): ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَبْرِكَنَّ أَعْمَالَكُمْ﴾ [سورة محمد، الآية ٣٥].

(١) انظر محمد عزت الطهطاوى، الإسلام ومشكلات معاصرة، دار المعارف، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ٢٦ وما بعدها.

(٢) انظر إجناس جولدتسيهر، العقيدة والشريعة في الإسلام، ترجمة د. محمد يوسف موسى، ود. على حسن عبد القادر، ود. عبد العزيز عبد الحق، دار الكتب الحديثة، مصر ١٩٥٩م، ط ٢، ص ٣٤ وما بعدها.

وقد أغفل جولدتسيهر أن الجهاد شُرِع في الإسلام للدفاع عن النفس ولتأمين نشر الدعوة دون فرضها على أحد، ودون عدوان على أحد، قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدَّبَتِ الرَّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [سورة البقرة، الآية ٢٥٦]، وقال: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [سورة التوبة، الآية ٤]، وقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ اتَّبِعْهُ مَأْمُورًا﴾ [سورة التوبة، الآية ٦].

ولم يكتف جولدتسيهر بالطعن في الإسلام ونبيه ﷺ، بل طعن كذلك في بعض الحركات الإصلاحية، ومجدد في الوقت نفسه بعض الحركات المنحرفة التي اتبعت سبيلاً غير سبيل المؤمنين، فقال: «بيننا الحركة الوهابية التي نشأت في شبه الجزيرة العربية.. توجه نظرها إلى الماضي، وتنكر الصفة الشرعية لما أحرزه المسلمون من تقاليد وسنن خلال تطورهم التاريخي، ولا تريد أن تعترف بالإسلام إلا على هيئة حفريّة متحجرة من حفريات القرن السابع الميلادي، نجد حركة أخرى من الحركات الطارئة التي حدثت في الإسلام في عصر أحدث من عصر قيام الوهابية، تؤمن بالتطور الديني للجنس البشري وتجعل من إيمانها هذا مبدأً أساسياً من مبادئها، وفكرةً حيوية في تعاليمها، وأعنى بها الحركة البابية التي كان مهدها في بلاد الفرس»^(١).

(٣) ومع أن الحوار بين الأديان لا يهدف إلى تغيير العقائد، وإنما يهدف - في المقام الأول - إلى الوقوف على القواسم المشتركة وتعظيم الاستفادة منها على النحو الذي يصب في مصلحة الجميع، إلا إن الكثيرين لا يدركون أبعاده وغاياته الحقيقية، والمخاطر المترتبة على محاولة أحد أطراف الحوار استقطاب الآخر أو إقناعه بالخروج من عقيدته واعتناق غيرها، الأمر الذي يؤدي إلى نتائج عكسية وينكأ الجروح القديمة، ويؤجج الصراع بدلاً من إنهائه.

(٤) ومما يزيد الأمر تعقيداً أن هناك من الكتاب الغربيين من يروج حتمية الصراع بين الإسلام والمسيحية؛ لأن المسلمين يؤمنون بأن شريعتهم هي الخاتمة للشرائع الإلهية، وأنها ناسخة للمسيحية، أو على الأقل مصححة لما في الإنجيل من أخطاء بعد أن امتدت إليه يد التحريف، الأمر الذي يؤدي إلى اصطدام الإسلام حتماً مع المسيحية التي يرفض أتباعها أي

(١) جولدتسيهر، العقيدة والشريعة، ص ٢٧٠.

نسى يأتي بعدها، ويعتبرون هذا النبي زنديقًا، وهذا الرفض الطبقي للدين الإسلامي قد صاغ على مر القرون صورة الشرق لدى الغرب المسيحي.^(١)

(٥) يُضاف إلى ذلك سيطرة الصهيونية العالمية على الإعلام العالمي، وقيامها بإشعال نيران العداوة والبغضاء، بحيث يختلط الحق بالباطل، وتضيق الحقيقة بين أصحاب الصوت العالي، وبين همسات المسلمين الذين تفرقوا بعد اجتماع، وتعصب أغلب المنتسبين إلى الإسلام إلى وطن وعرق وجنس ولون فضعت المهمة وخارت العزيمة، وسارعت الأقليات غير المسلمة في العالم الإسلامي إلى الاتصال بالغرب مستعينةً به ومستعديةً إياه للعالم الإسلامي بزعم أنها لا تحظى بحق المواطنة على نحو صحيح في الدول التي تعيش فيها.

كما تسعى الصهيونية العالمية إلى تحطيم معنويات رجال الفكر الإسلامي حتى تفل عزائمهم عن عرض هذا الفكر، ومعنويات الشباب المتدين من أبناء هذا الجيل، والتشكيك في صلاحية الإسلام لهذا العصر، والتشكيك في الرموز الدينية، وتعمد السخرية منهم، وتضخيم سقطاتهم حتى يزهدهم العامة وبالتالي يزهدون الدين، ويحاولون دون كلل إحلال عقيدة أخرى مهزوزة ممزقة في القلوب محل عقيدة الإسلام وإن تسمت باسمه ولكنها في حقيقة الأمر شيء آخر.^(٢)

(٦) وما أدى إلى تفاقم المشكلة - أيضًا - إخفاق معظم الأنظمة السياسية في العالم الإسلامي في تحقيق وعودها بالرخاء والتقدم مما دفع بعض الشرائح الاجتماعية من شعوبها إلى التطرف الديني، في حين أن العالم الغربي نجح في تحقيق التقدم وصناعة التكنولوجيا، ويسعى لنشر ثقافته وفرضها على العالم الأقل تقدمًا من خلال طرح تساؤلات فلسفية دينية حول أصل الإنسان والحياة والموت خاصة بعد اكتشافه الخريطة الجينية للإنسان، ومحاولة التدخل في طبيعة الخلية الحية والجينات الوراثية.^(٣)

(٧) ولا يزال كثيرون من النصارى - أيضًا - يحكمون على الإسلام بأنه مجموعة من العناصر المتفرقة التي أخذت من العناصر الرائجة إبان ظهوره، ويُحمّلون الإسلام مسؤولية التخلف

(١) تيم جولديمان، الشرق والغرب مواجهة أم تفاهم، ترجمة رضا حامد، ومحي الدين بدر وآخرين، مراجعة د. محمد أحمد منصور، ٢٠٠٦م، ص ٢٨.

(٢) انظر محمد عيسى داود، سر الكراهية أمريكا التلمودية، ص ١٢٥.

(٣) انظر د. إيهاب حفظي، الإسلام والغرب صراع أم تعايش، ص ١٢٨.

الذى تعانى منه معظم البلدان الإسلامية متناسين أن الحضارة الغربية مدينة فى ازدهارها إلى العلوم المأخوذة عن العرب والمسلمين فى عصور ازدهار الحضارة الإسلامية، كما أنهم يعتبرون الأقلية المتشددة من المسلمين هم الممثلين الحقيقيين للإسلام، ويربطون بين انتشار الإسلام والسيف، ويفعلون أن الإسلام دين السلام والرحمة والتسامح والعدل، وأن الغالبية العظمى من أتباعه محبوبون للسلام ويدعون إليه ويحرصون على التعايش مع غيرهم على نحو يصب فى مصلحة الجميع.

٨) كما أن شبكة المعلومات الدولية «الإنترنت» تعج بكرامية أصحاب المواقع الإلكترونية المختلفة للإسلام وأهله، والتشويه المتعمد، والتهامات الباطلة لنبىه ﷺ خصوصاً بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر عام ٢٠٠١م، حيث تعالت بعض الأصوات فى هولندا وإيطاليا تحذر من أسلمة أوروبا، وتدعو إلى الحد من الهجرة إليها، والمراجعة الجذرية للوجود الإسلامى فيها، بزعم أن فكرة التعايش بين الثقافات خصوصاً الإسلامية فكرة ساذجة يجب التخلي عنها.^(١) كما اشتعلت حملات إعلامية معادية للمسلمين فى أوروبا صاحبها إثارة أسئلة خبيثة، منها: هل الإسلام عقيدة الشيطان؟ وهل العنف من مبادئ الإسلام؟ وهل الإسلام يُحرّض أتباعه على قتل مخالفينهم فى العقيدة؟ وهل الجهاد فى الإسلام معناه قتل غير المسلمين؟

وقد أدت هذه الحملات الإعلامية المحمومة إلى إحراق كثير من المساجد ونش قبور موتى المسلمين فى فرنسا، والتحرش بالفتيات المسلمات مما دفع عدداً كبيراً من بنات ونساء المسلمين هناك إلى نزع حجابهن خوفاً من الاعتداء.

٩) وفى المقابل هناك من المسلمين من يسارعون إلى رفض الآخر، واتهامه بالضلال، متناسين قول الله تعالى: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون، الآية ٦]، ويخلطون بين المسيحية والعالم الغربى، ويحملونها مسئولية ما حدث فى زمن الاستعمار من مساوئ لحقت بالمسلمين وتراثهم، ويسارعون إلى وصف المجتمع الغربى بأنه مجتمع مفكك دون الاهتمام بتحليل مقوماته بطريقة منصفة.^(٢)

(١) انظر عبد الكريم الكيدانى، أوضاع المسلمين فى المجتمعات الغربية، بحث منشور ضمن أعمال المؤتمر العام السادس عشر للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ٢٠٠٤م بعنوان: «التسامح فى الحضارة الإسلامية»، ص ٧٤٣.

(٢) عبد الكريم الكيدانى، أوضاع المسلمين فى المجتمعات الغربية، ص ١٣٦ وما بعدها.

وهناك ممن ينتسبون إلى الإسلام من يسيئون إليه أكثر من أعدائه نتيجة جهلهم بتعاليمه من ناحية، ومحاولتهم توظيف الدين لخدمة أغراض سياسية أو أطماع دنيوية من ناحية أخرى، الأمر الذى يؤدي إلى الانحراف بالدين عن الطريق المستقيم.^(١)

١٠) كما أن بعض المسلمين يبررون مواقفهم من خلال إشارتهم إلى الإسلام نفسه، فيجعلون الصراع دينياً، في حين أن الخطاب في الغرب صبغته علمانية، ومعلوم أن وضع الحجج لا يتماشى مع قواعد الغرب في تبرير المواقف خصوصاً بعد أن قلت مساحة التفاهم المشترك في أعقاب وضع الغرب رؤيته للصراع داخل أطر دينية هو الآخر بسبب نفوذ البروتستانتية الحديثة في الولايات المتحدة الأمريكية من جهة،^(٢) وسيطرة الفكر اليهودى التلمودى والنصرانى الصهيونى عليها من جهة أخرى. ذلك الفكر الذى يروج لأكذوبة معركة نهاية التاريخ التى يطلقون عليها معركة «هَرْمَجْدُون»، والتى يشارك فيها المسيح اليهودى لتقييد الشيطان ونشر السلام والتمكين لأتباعه الأبرار ألف سنة فى الفردوس الأرضى، وحسب هذه الأكذوبة لن يأتى المسيح اليهودى إلا بعد تمهيد الأرض له من خلال القضاء على المخالفين الأشرار فى هذا العالم، والذين لا يعدون فى نظرهم أكثر من حيوانات مستباحة الدم بل ربما أقل.^(٣) ولا يخفى أن هذه الأكذوبة لها أبعاد خطيرة، منها:

أ- ترسيخ فكرة حتمية الصراع بين اليهود وغيرهم من الأمم الأخرى حتى انتهاء الملاحم، وقد كان لهذا الاعتقاد تأثيرٌ على موقف بعض اليهود من جدوى مشاريع السلام مع الآخرين، خصوصاً أولئك الذين يعتقدون أن الملاحم تسبق مجيء المسيح المنتظر، وأن السلام لا يكون إلا بعد مجيئه.

ب- قبول العالم لفكر الإبادة أو التصفية العرقية التى يقوم بها الكيان الصهيونى فى حق سكان المنطقة، إذ تحتاج الشعوب للتضحية بأرواح البشر، وكان هذا معروفاً جيداً لأولئك الذين شنوا حروب الفتوح والغزوات خلال التاريخ، وهذه الامبراطوريات غالباً ما فرخت دياناتها، وذلك لإضفاء الشرعية على تضحياتها العنيفة، وإلضفاء القدسية على قتلها.

(١) انظر د. محمود حمدى زقزوق، الدين للحياة، دار الرشاد، القاهرة، ط ١، ٢٠١٠م، ص ١٨٠ وما بعدها.

(٢) تيم جولديمان، الشرق والغرب مواجهة أم تفاهم، ص ١٥.

(٣) انظر سعيد عبيدى، معركة نهاية التاريخ وأبعادها السياسية والفكرية، مقال منشور ضمن مجلة البيان، القاهرة، يونيو ٢٠١٦م، العدد ٤٤٨، ص ٨٥ وما بعدها.

ج- التمهيد لإنشاء دولة إسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات باعتبار أن هذا وعدٌ إلهي ورد في كتبهم المقدسة، وبأنهم سيمتلكون أرض الميعاد، وبالتالي يتحتم على كل نصراني يؤمن بهذه الكتب أن يسعى لتحقيق هذه النبوءات حتى ينال رضا الرب.

د- تبرئة ساحة أمريكا والكيان الصهيوني من الاتهام بالعمل على وقوع هذه المعركة الكبرى المتوقعة، وربط ذلك بمشيئة الرب.^(١) وفي هذا الصدد صرح الرئيس الأمريكي الأسبق «ريجان» بالقول: «إن هر مجدون التي تنبأها حزقيال لا يمكن أن تحدث في عالم منزوع السلاح، إن ذلك يناقض مشيئة الله كما وردت على لسانه».^(٢)

(١١) والنصارى أيضًا يروجون نصوصًا ينسبونها إلى السيد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ تنسف فكرة التعايش من أساسها، منها على سبيل المثال: ما نصه في إنجيل متى (٣٦: ٣٤/١٠): «ما تظنوا أني جئت لأحمل سلامًا إلى الأرض. ما جئت لأحمل سلامًا، بل سيفًا. جئت لأجعل الابن يختلف مع أبيه، والابنة مع أمها، وزوجة الابن مع حماتها، فيكون خصوم المرء من أهل بيته». ومنها أيضًا (متى: ٣٠/١٢): «من ليس معي فهو ضدي، ومن لا يجمع معي فهو يشنت». «ومنها كذلك ما ورد في إنجيل لوقا (٢٦/١٤): «من يأتي إليّ ولا يُبغض أباه وأمه وزوجته وأبناءه وإخوته وأخواته، بل نفسه أيضًا لا يستطيع أن يكون لي تلميذًا». وكذلك ما ورد من نصوص تدل على أن ما عدا الإسرائيليين هم والكلاب سواء، ولا يستحقون أية هداية أو معونة من يسوع، فعلى سبيل المثال جاء في قصة المرأة الكنعانية (متى: ٢٦/١٥) أنها لما طلبت إلى المسيح المعونة في شفاء ابنتها التي أصابها مس شيطاني أجابها قائلاً: «لا يليق أن يؤخذ خبز البنين ويُلقى للكلاب».

(١٢) وبعض المسلمين أيضًا يسيئون فهم بعض النصوص التي صحت نسبتها إلى النبي ﷺ على نحو يتعارض مع التعايش السلمى مع الآخر، منها على سبيل المثال: قوله ﷺ: «لا تبدءوا اليهود ولا النصارى بالسلام، فإذا لقيتم أحدهم في طريق فاضطروه إلى أضيقه».^(٣) مع أن هذا الحديث خاصٌ ببني قريظة ومن عاونهم من أهل الذمة والمعاهدين الذين نقضوا العهد مع النبي ﷺ وظاهروا المشركين لإخراج المسلمين من المدينة في غزوة الخندق، فكان هذا خيانةً

(١) سعيد عبيدي، معركة نهاية التاريخ وأبعادها السياسية والفكرية، ص ٨٩ وما بعدها.

(٢) جريس هالسل، النبوءة والسياسة، ترجمة محمد السباك، دار الشروق، القاهرة، ط٤، ١٩٩٨م، ص ٥٢.

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب السلام، باب النهي عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام، وكيف يُرد عليهم، الحديث رقم ٢١٦٧.

منهم للعهد وإعلاناً للحرب، فنهى النبي ﷺ المسلمين عن أن يبدءوهم بالسلام لإشعارهم بعواقب نقضهم العهد وبدنوا إعلان الحرب عليهم بعد انتهاء غزوة الخندق، فهذا ليس حكماً عاماً يشمل أهل الكتاب جميعاً أو اليهود جميعاً^(١) بدليل قوله تعالى: ﴿لَا يَتَهَكَّرُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوا فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُواكُم مِّن دِينِكُمْ أَنَّ تَبْرؤُهُمْ وَنَقَسُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (٨) إِنَّمَا بَنَاهُمْ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُواكُم فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُواكُم مِّن دِينِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿سورة الممتحنة، الآيتان: ٨، ٩﴾.

وفي صحيح مسلم: سلم ناس من يهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السام عليك يا أبا القاسم، فقال: «وعليكم»، فقالت عائشة وغضبت: أمر تسمع ما قالوا؟ قال: «بلى. قد سمعت فرددت عليهم. وإنا نجاب عليهم ولا يجابون علينا».^(٢) ولم يكن الرسول ﷺ لينهى عن السلام على أهل الكتاب أو أهل الذمة ثم هو يرد عليهم السلام، بل يرد عليهم وهو يعلم أنهم يدعون عليه ويسئون القول. فما وجدوا عند الرسول ﷺ إلا حسن الرد وحسن الخلق والرفقة والرحمة على الرغم من إساءتهم، فما بالناس لو كانوا مسلمين أو كانت أخلاقهم طيبة هل يُتوقع من رسول الله ﷺ أو من المسلمين أن يتجنبوهم أو يُغلظوا عليهم؟!

(١٣) إن التدين الفاسد من أكبر التحديات التي تواجه التعايش السلمى بين أصحاب الشرائع، بل حتى بين أصحاب المذاهب في الشريعة الواحدة، فقد يدعى أهل كل مذهب الاجتهاد في طلب الصواب، ويتحمل الأذى طلباً للهدى وتحصيل الأجر في اعتقاده، ومع هذا فإن العقل يقطع بضلال الأكثرين، وهذا قد يُشكل. وإنما كشفه أنه ينبغي أن يُطلب الهدى بأسبابه، فأما من فاته الأسباب أو فقد بعض الآلات فلا يقال له مجتهد. فاليهود والنصارى بين عالمٍ قد عرف صدق محمد ﷺ لكنه يجمد إبقاء لرياسته، فهذا معاند، وبين مقلد لا ينظر بعقله فهذا مهمل، فهو يتعبد مع إهمال الأصل، وذاك لا ينفع، وبين ناظر منهم لا ينظر حق النظر، فيقول: في التواراة أن ديننا لا يُنسخ. ونسخ الشرائع لاختلاف الأزمنة حق، ولكنه يقول: النسخُ بداء، ولا ينظر في الفرق بينهما، فينبغي أن ينظر حق النظر.

(١) انظر د. على جمعة، نماذج الأربعة من هدى النبي ﷺ في التعايش مع الآخر، دار الفاروق، القاهرة، ١٣، ٢٠١٣م، ص ٦٢ وما بعدها.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب السلام، باب النهى عن ابتداء أهل الكتاب بالسلام، وكيف يُرد عليهم، الحديث رقم ٢١٦٦.

ومن هذا الجنس تعبد الخوارج مع اقتناعهم بعلمهم القاصر، وهو قولهم: لا حكم إلا لله، ولهم يفهموا أن التحكيم من حكم الله، فجعلوا قتال علي رضي الله عنه وقتله مبنياً على ظنهم الفاسد.

ولما نهب مسلم بن عقبة المدينة وقتل الخلق قال: إن دخلت النار بعد هذا إنني لشقي، فظن بجهله أنهم لما خالفوا بيعة يزيد يجوز استباحتهم وقتلهم. فالويل لعامى قليل العلم لا يتهم نفسه في واقعة ولا يذاكر من هو أعلم منه، بل يقطع بظنه ويقدم. وهذا أصل ينبغي تأمله، فقد هلك في إهماله خلق لا تحصى^(١): ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ ۖ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ۖ ﴿٣﴾ تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً﴾ [سورة الغاشية، الآيات: ٢: ٤].

(١٤) ومن التحديات المهمة للتعاشيش السلمي في الوقت الحاضر محاولة الغرب استمالة الأقليات داخل العالم الإسلامي لإيجاد مواطن أقدام له في إطار التصعيد ضد العالم الإسلامي بعد أن تعذر عليه ذلك إبان الحملات الصليبية، وليس المقصود هنا الأقليات الدينية سواء كانت يهودية أو نصرانية، وإنما المقصود الأقليات على نحو عام بما في ذلك الأقليات العرقية أو المذهبية المسلمة، فقد تلاعب الغرب بقضية الأكراد وهم سنون، وبالشيعة وهم مسلمون، وبالبربر وهم مسلمون ثم مالكيون، وذلك بهدف إشعال الفتنة، وبث عوامل الفرقة، وإثارة الصراعات التي تفتت وحدة العالم الإسلامي بشكل عام، وتفتت دوله إلى دويلات، والنموذج العراقي ليس منا يبعيد في هذا الصدد.^(٢)

(١٥) ولا يخفى أيضاً أن من أبرز التحديات المعاصرة للتعاشيش السلمي تلك الأصولية الزائفة المتطرفة العنيفة الوافدة التي صنعت على أعين الغرب، وتحتم سمعه وبصره، ذلك الغرب الذي يغلب عليه التوجه الصليبي الصهيوني الذي يدعم تلك الأصولية الزائفة ويرعاها في الباطن، ويحاربها في الظاهر، بهدف المكر بالإسلام، والكيد له تحت أفتنته، في ظل التخفي بعباءته، وتحتم أستاره وسدوله،^(٣) لتنفير الناس منه، وصددهم عنه، وتحفيزهم نفسياً، وحشدهم فكرياً وعسكرياً لمقاومته والتصدي له، بل والعدوان على أتباعه.

(١) انظر ابن الجوزي، صيد الخاطر، مكتبة مصر، القاهرة، ط ٢٠٠٨، ص ٢٩٨.

(٢) انظر د. محمد عمارة، الجديد في المخطط الغربي تجاه المسلمين، دار المعارف، القاهرة، ٢٠١٣، ص ٢٩ وما بعدها.

(٣) انظر يوسف الحمادي، الإسلام وروح التسامح والرفق، مكتبة مصر، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٦٤.

(١٦) ومما يهدد التعايش السلمى فى المجتمع الدولى بأسره اتساع الفجوة بين المثال والواقع، أو بين النظرية والتطبيق فيما يتعلق بالعلاقات الدولية. فالعدالة - مثلاً - ليست معياراً مفعلاً فى بناء العلاقات بين أعضاء المجتمع الدولى فى الوقت الحاضر. صحيح أنها لم تكن كذلك منذ أزمنة بعيدة إلا إن مضاداتها من الظلم والاستغلال والاحتكار والاستثثار تكاد تكون المعيار الحاكم لهذه العلاقات على مستويات مختلفة: عالمية بين الشمال والجنوب، وإقليمية بين القوى والضعيف، ومحلية بين الغنى والفقير.

وفىما يتعلق بمبدأ الوفاء بالعقود والمعاهدات والمواثيق الذى يُفترض فيه أنه الضامن لبناء التعاون الدولى وترسيخ ثقافة السلم فالفجوة هائلة هنا أيضاً بين المبدأ والتطبيق. وقد شهد عالمنا فى القرن الماضى ولا يزال يشهد كثيراً من الانتهاكات والنكث بالعهود والمواثيق بدافع من شهوة العدوان ونزعات الظلم وخطرة القوة.

وفىما يتعلق بالثروة الهائلة فى نظم الاتصالات الحديثة ووسائل نقل المعلومات فإنها بدلاً من توظيفها فى تعميق التعارف بين الشعوب والأمم، وفى إغناء بعضها بمعرفة ثقافات وخصوصيات بعضها الآخر يتم تسخيرها لخدمة أغراض ومصالح أنانية، ولممارسة الهيمنة بالقوتين: الناعمة، والخشنة، وتجاهل التعرف على الأطراف الأضعف فى هيكل النظام الدولى، بل والسعى لطمس هوياتها وثقافتها لمصلحة القوة المهيمنة.^(١)

يؤكد هذا إعلان الولايات المتحدة الأمريكية أن القانون الجديد يتحدد وفقاً للمصالح والأهواء، وهو ما يعنى شيوع الفوضى، وانهايار الثقة فى المعاملات والقيم الدولية، وسيادة القوة، والعودة بالبشرية إلى قرون سابقة، والتضحية بصروح هائلة من المكتسبات الإنسانية فى كل المجالات.^(٢)

وقد صاحب هذا محاولات مستمرة من الولايات المتحدة للتدخل فى العقيدة الإسلامية بحجة تنقيتها من ثقافة الإرهاب، وهو أمر يهدف إلى إعادة صياغة الهوية الإسلامية على

(١) انظر د. إبراهيم البيومى غانم، المبادئ العامة للنظرية الإسلامية فى العلاقات الدولية، دار المعارف، القاهرة، بدون تاريخ، ص ٣٢ وما بعدها.

(٢) انظر د. عبد الله الأشعل، تحديات الحوار بين الإسلام والغرب فى أعقاب أحداث ١١ سبتمبر، بحث منشور ضمن أعمال المؤتمر الدولى السابع للفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة بعنوان «الإسلام والغرب، حوار أم صراع»، ٢٠٠٢م، ص ٢٣٤.

هوى الولايات المتحدة، وهو ما يتحتم على المسلمين مقاومته والتصدي له بكافة الوسائل المشروعة.

وفي الختام أقول: على الرغم من كل هذه التحديات فإن التعايش بين أتباع الرسالات الإلهية الكبرى في العالم الآن ضروري أكثر من أي وقت مضى على كافة الأصعدة، وتحقيقه ممكن إذا خلصت النوايا وقامت جميع الأطراف بواجباتها لبناء الثقة بين الحضارتين: الإسلامية، والغربية، والدفاع عن حقوق الأقليات المسيحية في بلاد المسلمين، والأقليات المسلمة في بلاد الغرب، واحترام كل طرف تاريخ وثقافة الآخرين ومعتقداتهم ومقدساتهم، والتزام المجتمع الدولي بالحلول السلمية للمنازعات، واحترام سيادة القانون في العلاقات الدولية، والتعاون في القضاء على الإرهاب الذي يهدد العالم بأسره، وعدم التركيز على قضايا الخلاف، والاعتماد على الحوار الهادئ الهادف المتكافئ في تقريب وجهات النظر، والتركيز على القواسم المشتركة وتعظيم الاستفادة منها، والتخلي عن كل أشكال الإساءة إلى الآخرين، وتوحيد الجهود ضد الظلم والعنصرية وخطورة القوة واحتكار الثروات الطبيعية، والدفاع عن آدمية الإنسان وكرامته وحقوقه المشروعة بفكر حر وواع مستنير يهدف إلى السلام العادل والشامل.

توصيات البحث

خطوات قابلة للتنفيذ على طريق التعايش

وبعد أن تم الوقوف على أبرز التحديات التي تواجه التعايش المنشود بين معتنقي الأديان فإنه يحسنُ تقديم عدد من التوصيات التي يمكن ترجمتها إلى خطوات عملية قابلة للتنفيذ لأجل التعايش الذي يعد ضرورة للسلم والأمن في المجتمعين: المحلي، والدولي، كما يُعد مدخلاً رئيساً للتعاون المشترك بين البشر أجمعين - على اختلاف أجناسهم وأديانهم - من أجل التآلف الاجتماعي، والاستقرار السياسي، والتقدم الاقتصادي، والنهضة العلمية وتسخيرها لخدمة الإنسان بعيداً عن إهدار مقدراته وطاقته في النزاعات التي عانى ولا يزال يعاني منها المجتمع الدولي برمته، خصوصاً بعد أن أدرك الجميع بعد التجارب الإنسانية عبر تاريخها الطويل أنه ليس بوسع طائفة أو جماعة أو أتباع ديانة أن تقصي الآخرين، وليس من حقها أن تهدر حقوقهم في الوجود لينعموا جميعاً بالاحترام المتبادل، وحرية الفكر والاعتقاد، والانتفاع بخيرات الأرض التي منحها الله - تعالى - للبشر أجمعين، والتي تكفي أهلها، بل تزيد عن حد الكفاية إن هم أحسنوا استغلالها، وتعاونوا من أجل تنميتها لتعظيم الاستفادة منها. تلك الخطوات التي يمكن أن نبرز أهمها فيما يأتي:

أولاً: التعامل الشريف والنزيه مع الآخرين بعيداً عن الأهواء والأغراض الشخصية والمصالح الآنية الضيقة، ومطالبة الأفراد في الداخل والخارج بتحسين سلوكهم، وإعطاء انطباع جيد عن بلادهم ودينهم، والقبول الفعلي بالتنوع الثقافي بين الشعوب واعتباره مصدراً لتقدم البشر، والاحترام المتبادل، والتسامح في وجهات النظر والقيم الخاصة بمختلف الثقافات والحضارات وحقوق الأفراد المنتمين إلى جميع الحضارات في الحفاظ على تراثهم وقيمهم الثقافية، ورفض تدنيس القيم الأخلاقية والثقافية وانتهاك الحرمات والمقدسات.

ثانياً: العمل على احترام حقوق الإنسان بقطع النظر عن أجناس الناس وعقائدهم وتوجهاتهم الفكرية، وتطبيق المبادئ والقيم الأخلاقية العامة المشتركة بين كافة العقلاء بحيث تتطابق الأفعال مع الأقوال.

ثالثاً: تفعيل دور المؤسسات التربوية في تربية النشء على التفكير العلمي الموضوعي

بمناهجه وأدواته المتنوعة، والتجرد للحق والحقيقة، في ضوء القيم الأخلاقية والأهداف النبيلة التي تخدم الناس أجمعين دون استثناء.

رابعاً: الاتصال بالدوائر الثقافية والفنية والعلمية في الجامعات وسائر المؤسسات التعليمية والعلمية - بعيداً عن الأوساط المشبوهة والجمعيات السرية - للاضطلاع بدورها في نشر المعارف والعلوم الإنسانية التي تعين على فهم الآخرين ومقوماتهم الشخصية وتوجهاتهم الفكرية للتعرف على كيفية التعامل الصحيح معهم، والبحث عن القواسم المشتركة التي يمكن تعظيم الاستفادة منها، لأن الجهل بالآخرين، وإساءة الظنون بهم، والتوجس منهم، والتربص بهم يؤدي إلى عواقب وخيمة.

خامساً: دعم المؤسسات الدينية للقيام بدورها في تنقية الفكر الديني مما لحق به من أفكار هدامة بعيدة عن جوهر الأديان الصحيحة التي تقود إلى الحق والخير، وتسعى لرقى الإنسان، مع التركيز على تجديد الخطاب الديني على نحو يحسن التمييز بين الثابت المطلق، والمتغير النسبي؛ لأن الخلط بينهما يؤدي إلى التعصب وعدم القدرة على تنزيل النص على الواقع على نحو صحيح، ويضر بفقته الأولويات إن لم يصبه في مقتل.

سادساً: التواصل مع الفضائيات العالمية التي تسمح بتقديم برامج ثقافية متعددة ومتنوعة تخدم أهدافاً ثقافية أو دينية، ويمكن للمسلمين التعامل معها، وتقديم أفكار ومادة متلفزة لهذه البرامج، وتكوين صداقات مع الأفراد، كما يمكن شراء مساحات للنشر في الصحف العالمية واسعة الانتشار لتقديم الإسلام في صورته الحقيقية السمحة.

وهناك مثال ناجح عام ١٩٨٤م، حيث قام د. كيث مور من جامعة تورنتو بكندا بتقديم مقالات في خمس صحف كندية، وفي الإذاعة عرض فيها تقارير عن الأدلة العلمية التي وردت في القرآن الكريم عن علم الأجنة.

كما يمكن الاتجاه إلى القنوات الفضائية التي تسيء إلى الإسلام، وتقديم برامج مجانية أو مدفوعة الأجر عن الإسلام الوسطى على نحو واع مدرك طبيعة العقل الغربي بدون تعصب في محاولة جادة لجذب اهتمام الناس للتعرف على الإسلام.

ويحسن إنشاء هيئة إعلامية عربية إسلامية يكون أحد برامجها المتعددة والمتنوعة تقديم إنتاج سينمائي عالمي يحسن تناول قضايا الإسلام والمسلمين بلغات أجنبية متنوعة، ويسحب

البساط من تحت أقدام الأعداء، ويساعد في رفع أصوات الأصدقاء، إذ بقدر ما لنا من أعداء في أمريكا والغرب يوجد لنا أصدقاء، ولكننا لم نحسن التعامل مع هؤلاء ولا أولئك.

ويمكن - أيضًا - الاتصال بالكنائس لإعداد حلقات نقاشية عن موضوعات محل اهتمام مشترك، كالحديث عن العدل والمساواة والمحبة والسلام وحرية الفكر والاعتقاد والقيم الأخلاقية في المسيحية والإسلام. ومما يساعد على ذلك أن هناك من أهل الكنائس أناسًا أوتوا حظًا من الساحة والبصر، عاملوا المسلمين بكرم ونبيل، فبادلهم المسلمون التحية بخير منها، وحافظوا أتم المحافظة على مشاعرهم ومناسكهم، وكم نرجو لو يكثر هؤلاء المنصفون، وكم نرجو لو ملكوا زمام قومهم، فعاشوا وعشنا معهم في وئام وطمأنينة.

سابعًا: التواصل مع الشعب الأمريكي بإهداء الكتب الجيدة عن الإسلام للمكتبات العامة، ومكتبات الكنائس والمدارس والمستشفيات والسجون، وللأساتذة الذين يقومون بتدريس الإسلام حتى لو كانوا من غير المسلمين، ودعوة طلاب المدارس والجامعات والجمعيات النسائية الأمريكية، وبعض الكتاب والنقاد والصحفيين الذين يكتبون في الصحف اليومية ولهم أعمدة في الصحف والمجلات لزيارة المراكز الإسلامية في أمريكا، وتقديم واجب الضيافة لهم بصورة مبسطة، والإجابة عن جميع أسئلتهم بهدوء تام، واستضافة الأساتذة والأقسام العلمية الأكاديمية التي لها صلة بموضوع الندوة، والاجتهاد في جذب المزيد من الشعب إلى المراكز والمؤسسات الإسلامية.

ثامنًا: ترجمة أهم ما يكتبه المتخصصون في العلوم الإسلامية إلى لغات أجنبية لتصحيح صورة الإسلام النمطية التي نجح الغرب بتوجهاته الصليبية والصهيونية في تشويهها لدى المواطن الغربي قديمًا وحديثًا. مع ترجمة أهم ما يكتبه غير المسلمين للتعرف على فكر الآخرين وثقافتهم، ونشر إنتاج المسلمين الجدد وتجربتهم السابقة على اعتناقهم الإسلام وتقريبها إلى الأفهام، والسماح لهم بالتحدث عن تجربتهم أمام المنتديات العلمية ليكونوا نموذجًا لغيرهم.

تاسعًا: التواصل مع الأقليات الإسلامية المنتشرة في البلاد التي لا تدين بدين الإسلام ومساعدتهم على النحو الذي يمكنهم من القيام بواجبهم في تقديم الإسلام في صورته الحقيقية الناصعة من خلال معاملاتهم المباشرة مع الآخرين على كافة الأصعدة.

عاشرًا: محاولة شغل أوقات الفراغ للجاليات الإسلامية، والقضاء على الخواء الروحي، ومقاومة الإلحاد، والعودة إلى الاعتصام بحبل الله المتين بعيدًا عن عدم الاكتراث لدى أولئك الذين يفرطون في دينهم وأخلاقهم وقيمهم بدعوى مسيرة العصر.